كرسي الأمير نايف بن عبد العزيز لدراسات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

مؤتمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمستجدات المعاصرة

النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحرية . أية علاقة
مقاربة تربوية اجتماعية في ضوء مستجدات الفكر المعاصر

إعداد:

د/ العربي فرحاتي .

جامعة باتنة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

محاولة لتحديد مشكلة البحث:

المتغيرات الثلاثة، (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة، والحرية) وإن هي قيم إيجابية نص عليها الدين الإسلامي، وأوجب العمل والاعتناء والاهتمام بها كقضايا كلية معيارية، وحث على استنباتها تربويا كسلوكات مشاعة مستمرة بين أفراد المجتمع المسلم، عبر التنشئة، التربية، المدرسة، المسجد...الخ)من أجل حصار الرذيلة وانهيار القيم على مستوى كل دواليب الحياة الاجتماعية، إلا أنها بوصفها فعل خارجي ضابط للسلوك، استباقي لمنع الرذيلة والجريمة، وإنقاذي من موبقات،ونقدي للسلوك الخاطئ، قد تمارس في وضعيات وجدانية حميمية، وتعبر بذلك عن صورة من صور تآخي أفراد المجتمع وتثاقفه وتحابه وتعاونه على البر والتقوى، ودفع الإثم والعدوان، وترقية سلوكاته نحو أفضل صيغ الاستخلاف في الأرض، كما أنها قد تمارس بصيغ سلطوية ضاغطة منمطة للسلوك تعيق الإرادة الحرة والإبداع وتثقل النفس، وتشيع الكره بين الناس، فتصبح في علاقات تنافرية ، وتضحى هي المشكلة في حد ذاتها تحتاج إلى ترشيد ، تطرح على مستويات عدة (المستوى المعرفي، والأخلاقي، والمؤسسي، والتربوي) بناء على قاعدة " أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره " .

فتصبح النصيحة مشكلة معرفية تتعلق بموضوع النصيحة فهما وإفهاما، ومشكلة أخلاقية تتعلق بأدب النصيحة والغرض منها، ومشكلة بيداغوجية تتعلق بالشروط البيداغوجية ومشكلة وعضية للداعي والشيخ ومشكلة سوسيولوجية تتعلق بتراتيبية المتواصلين، وهي كذلك من الوجهة المؤسسية مشكلة أسرية وتربوية مدرسية، ...الخ .

وتصبح الحرية مشكلة معرفية تتعلق بماهية الحرية وجوهرها ومفهومها، ومشكلة بيداغوجية تتعلق بالشروط البيداغوجية لتمثل السلوك الحر والوعي به، ومشكلة أخلاقية تتعلق بحدودها وشروط ممارستها في ضوء المسؤولية وحقوق الآخرين، ومشكلة بين الحاكم والمحكوم ..الخ

وتصبح قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشكلة معرفية تتعلق بموضوعه ومشروعيته، وحدوده، وهو مشكلة بيداغوجية تتعلق بالتدريب وتأهيل القائمين عليه، ومشكلة أخلاقية تتعلق بآداب الأمر والنهي واحترام الآمر والناهي، للمأمور والمنهي، ومشكلة مؤسسية تتعلق بالتنظيم والقوانين الضامنة للأمن الاجتماعي من جهة، والحريات الفردية من جهة أخرى ...الخ)

ومن هذه الحالة الإشكالية التناقضية التي تبدوا عليها هذه القيم النبيلة في ممارساتها وعلاقاتها، وتظهر كما لو أنها في تنافر، تتأسس مشكلة هذا البحث، للوقوف على حقيقة أم وهم تنازع هذه المفاهيم وتنافرها، عندما تصبح متغيرات وظيفية في السلوك الاجتماعي للأفراد، ومن ثم بحث السبل التربوية والبيداغوجية التي تجعل منها متغيرات متناغمة وفي وحدة عضوية .

حول المعاني اللغوية للمصطلحات :

النصيحة، والحرية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أسماء ومفاهيم ومعروفات، أطلقت على بعض الظواهر من السلوك الإنساني الثقافي الإسلامي، من حيث هي ظواهر سلوكية علاقية (اجتماعية) توجد في نطاق " النحن " الإنسانية والجمعية في صيغتها الإسلامية، تنم عن الطبيعة الثقافية التي تميز الإنسان عن حالته الطبيعية البيولوجية (الحيوانية). وبلغة علم النفس وفي إحدى تفسيراته وتأويلاته للحدث النفسي، هي ظواهر لبعض تجليات المجال النفسي المنبثق والمعدل عن المجال الحيوي البيولوجي عرفت ورمزت في أسماء وجردت إلى مفاهيم، تحتاج إلى بحث معانيها ودلالاتها وهو ما سنطرقه في التالي .

النصيحة .

ورد في منجد اللغة العربية، النصيحة (اسم مصدر) جمع، نصائح، والناصح، جمع نصحاء، يتضمن عدة معاني منها : الإخلاص والصدق والصفا ، والدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد، ومنها العضة وإخلاص المودة، والصفا والإخلاص، (١ : ٨١١ . ٨١٢) ♣. كما تتضمن بحسب ما جاء في موقع " إسلام أون لاين " معنى الإصلاح والنماء وإرادة الخير للمنصوح له . ومجمل ذلك أنها بهذه المعاني نقيض الغش، وهي سمة المؤمنين المتميزين عن المنافقين، كما قال علي كرم الله وجهه(المؤمنون نصحة والمنافقون غششة) .

والنصيحة في الثقافة الإسلامية معلم رئيسي من معالم الدعوة إلى الله، تهدف إلى إقامة الحق، وهي في جوهرها من عمل الصالحات، ومن صالح الأعمال لا يقوم بها إلا الصالحين، وأولاهم في

♣ طريقة التهميش = يشير الرقم الأول في القوسين إلى رقم المرجع في قائمة المراجع والرقم الثاني إلى رقم الصفحة في نفس المرجع، او رقم الحديث ورتبت المراجع بما فيها مراجع الحديث الشريف حسب ظهورها في المتن، والهوامش السفلية خصصت للشروح ولتخريج الأحاديث النبوية بعلامات خاصة ، والآيات رقمت في الهوامش السفلية حسب ظهورها في المتن بالترتيب .

ذلك الأنبياء والرسل والتابعين والعلماء، والحكماء ومن تبعهم، وقد جاء في القرآن على لسان سيدنا شعيب (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب)[١] وجزاء الناصح عند الله، جنات تجري من تحتها الأنهار، لقوله تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار)[٢].. ولا تقتصر النصيحة على سلوك دون آخر، ولا على نوع محدد من الناس أو فئة دون أخرى، ما دام الإنسان خطاء بطبعه، والكمال صفة لله وحده، فقد قال الرسول الكريم في حديث رواه الترمذي (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) .* (٢ : رقم ٢٤٩٩) والنصيحة شاملة لكل ما يصدر من المنصوح له (رئيس، مرؤوس، عالم، جاهل ، أب، ابن، أم، أخت، طبيب، مريض، معلم، تلميذ ...الخ) بشكل خاطئ في ذاته، أو في سلوكه، مع الآخرين، أو تجاه دينه، وفق معايير الدين القويم أو العرف السليم أو العلم الصحيح، فينصح المرء لخلل في لباسه أو في سلوكه، أو في مأكله وشربه، أو في مشاريعه، أو في عقيدته، أو في تعبده، أو في أسلوبه الدعوي، أو في علاقاته، وأعماله، أو اختصاصه العلمي، أو في تدبيره وتسييره كقائد . وجاء في الحديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم عن تميم الداري، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال . الدين النصيحة ثلاثا . قلنا لمن يا رسول الله، قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين، وعامتهم) .

والنصيحة في معناها المركزي من حيث هي تذكير وتنبيه أو إسداء الوعظ والرأي المفيد، إلى من يحتاج إلى التذكير والعضة بالخير أو يطلب ذلك، أو هي تذكير بآفات ومخاطر الفعل، في أمر من أمور الدين أو الدنيا، تقترن بالتوصية والتواصي بالخير، من حيث هو العهد بأمر من الأمور والحث على فعله لما فيه صلاح الموصي، لقوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) [1] أو هو طلب النصيحة أو وصية، ممن يحتاجها، فوصايا لقمان لابنه وهو يعظه (يا بني لا تشرك بالله.) [٢] ووصايا سيدنا إبراهيم لبنيه (إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون .)[٣] وما

---

(١) هود . الآية ٨٨

(٢) البقرة . الآية : ٢٥

* رواه الترمذي رقم . ٢٤٩٩

(1) العنكبوت . الآية . ٨

(٢) لقمان . الآية ١٣

(٣) البقرة . الآية ١٣٢

ذكره القرآن في وصف الناجين من النار (ثم كان من الذين امنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) [٤] وما ذكره على لسان سيدنا عيسى عليه السلام (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا .) [٥] وفي سورة العصر (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) [٦] وقول الرسول كما رواه البخاري ومسلم(ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) (٣ :رقم ٦٠١٤) فكل هذه الوصايا تكاد تكون مرادفة للنصيحة أو هي النصيحة ذاتها، ومن ثمة فليس التواصي إلا تقديم النصيحة، لمن يحتاجها أو يطلبها، ومنه فالمجتمع المتواصي هو المجتمع ألتناصحي عندما يشاع فيه التذكير بالخير بين الناس بصفة متبادلة، فيكون الإنسان ناصحا ومنصوحا في نفس الوقت، كما يكون موصيا وموصي إليه، وكل من فضيلتي الوصية والنصيحة بالخير مقترنتان بالوعظ والترغيب أكثر من اقترانهما بالأمر والنهي، وحتى أن الوصية الشرعية الخاصة بالميراث، إن هي إلا تذكير وترشيد شرعي، لما يفعل بالمال والممتلكات بعد وفاة مالكه، وقولنا " أوصيك بتقوى الله"يكاد يكون مرادفا للمعنى الذي يفيده قولنا "أنصحك بتقوى الله" والتوصية كالنصيحة قد تقبل من الناصح ويقبل عليها المنصوح، ويستجيب لها، وقد يرفضها، فكذلك التوصية قد تقبل من الموصي ويتقبلها الموصى إليه ويستجيب لها وقد يرفضها .(٤ . ١٩٥)

مشروعية النصيحة:

للنصيحة في حياة المسلمين شأن عظيم، وهي حق المؤمن على المؤمن ، تندرج ضمن الدعوة إلى الله، وقد وضعها الرسول الأكرم من مواضيع البيعة، فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال، بايعت رسول الله على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم) رواه البخاري *. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه البخاري أيضا(المؤمن مرآة أخيه المؤمن) *.(٥ : رقم ٢٣٨) مما يفيد أن المجتمع الإسلامي في أصله وفي نطاق محدودية استقامة أفراده على الطريقة المستقيمة، وجبلية النفس الإنسانية على الخطأ، هو مجتمع منقسم إلى ناصحين ومنصوحين وبحكم ذلك، فالفرد المسلم في المجتمع الإسلامي متحرك ومتنقل من حيث الأدوار الوظيفية في فعل

(٤) البلد . الآية ١٧

(٥) مريم . الآية ٣١

(٦) العصر. الآية ٣

* أخرجه البخاري في صحيحه باب (الدين النصيحة) . رقم ٥٧ .

* رواه البخاري في الأدب المفرد باب المسلم مرآة أخيه . ٢٣٨ .

النصح، حيث ينتقل الأفراد . وحتى المؤسسات والهيآت والجمعيات.. . من مواقعهم بصفتهم ناصحين حينما يمتلكون المعرفة ويكونون مؤهلين، وعلى قدرة من اكتشاف وإدراك خطأ الآخرين، إلى مواقع المنصوحين . حين يقعون هم في الخطأ . فيصبحون مجالا ومواضيع للنصح والإرشاد، فالمواقع في فعل النصح غير ثابتة، مما يجعل أفراد المجتمع الإسلامي في وضعية وظيفية متنقلة بين وظيفة المتلقي للنصائح ووظيفة المرسل للنصائح، وبتعبير آخر فالفرد في المجتمع الإسلامي، معلم دائم ومتعلم دائم .

كما يفيد الحديث الشريف أن المؤمن للمؤمن . وفي نطاق الأخوة الإسلامية والخيرية الإنسانية . يشكل الصورة المعيارية والطاقة المعرفية التي لا تنبض يتعلم منها ويكتشف . من خلال معياريتها . كل أخطائه وزلاته وحتى منكراته، فيعدلها باستمرار، وبالتالي فكل المؤمنين مصدر تعلم للأفضل والأجود والأحسن من بعضهم البعض، وبعضهم لبعض معين لا ينبض من التذكير البيني والتنبيه للأخطاء والانحرافات، التي يقع فيها المؤمن حين الغفلة، التي تستوجب التوبة النصوحة، وهو ما يجعل الكل للكل في المجتمع الإسلامي حصن منيع من أي اختراق شيطاني، حيث حصار الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، فيصبح بذلك المجتمع معرفي أخلاقي يتبادل النصيحة ويكفر باستمرار عن الأخطاء، بتعديل السلوك وتغييره نحو أفضل الحالات والتي حددت في الثقافة الإسلامية بموجب الحديث الشريف في الإحسان الذي رواه البخاري في صحيحه(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).* (٦ : رقم ٥٠)

وتتأسس النصيحة في حياة المسلمين كواجب أخلاقي تعلمي تتعاطاه الأمة الإسلامية بين أفرادها من داخلها، وبينها وبين الأمم والشعوب الأخرى، على مشروعية إرسال الأنبياء والرسل، لحفظ التوازن في التجمع البشري، من حيث أن البشر مخلوقات الله، جزء من الكون، لا تخرج عن نظامه وسننه في الخضوع لله، كما هو الكون المحفوظ بسنن الخضوع لله وحده لا شريك له، يتصرف فيه كما يشاء، كما دلت على ذلك الآية الكريمة (ثم استوي إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)[(١)]. فالدعوة عند كل الأنبياء في بعدها المتعلق بالنصح، تأطرت وصيغت في قوله تعالى (يا قوم أعبدوا الله مالكم من إله غيره)[(٢)] حيث وردت

---

* رواه البخاري في صحيحه . باب الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة . رقم ٥٠

(١) الأعراف . ٩

(٢) الأعراف . ٧٣

هذه الآية مكررة في عدة مواقع من سورة الأعراف ، وتفيد معانيها كما ورد عند معظم المفسرين التكليف الموحد في صيغته اللفظية عند كل الأنبياء، قطعي الدلالة ، ذات هدف واحد لم يتغير، يتعلق بتحقيق قاعدة أن يكون السلطان في حياة الناس لله وحده لا للهوى ولا للعبيد، فيستعبد الناس بعضهم بعضا وتذهب فطرة الله، فما من رسول من عند الله .كما ورد وتكرر في سورة الأعراف، إلا وذكر بها قومه حين ينسون أو يتناسون ما خلقوا من أجله (عبادة الله والاستخلاف في الأرض) كما أخبر به أنبياء قبل ذلك، ويكون شيطان الإنس والجن قد أغواهم بوساوسه، وسقطوا في رذيلة الشرك وتبعاته السلوكية الضارة. فكل الرسل أرسلوا بوصفهم ناصحون هداة لأقوامهم وغيرهم من بني جلدتهم، عقب كل انحراف يصيب الناس والأقوام، (أفرادا وجماعات ونظم) من حيث هو انحراف عن سنن الله في كونه، فيبتعدون عن توحيد الله وتقواه، بتأثير الأهواء والغرائز البهيمية والنفس الأمارة بالسوء، وسقوطهم في الشرك والظلال وفخاخ الشيطان وحبائله، مما يستوجب تذكير الناس ونصحهم باستمرار، وهو ما كان من رسالات جميع الأنبياء والرسل (آدم ، نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وإبراهيم، وعمران، وموسى وعيسى، ومحمد) .(٦ : ١٣٠٣ . ١٣١٦) فكلهم سعوا ونصحوا وأوصوا من بعدهم، بالسعي إلى تنشيط النفس اللوامة للحد من مفاعيل النفس الأمارة، ومن أجل النفس المطمئنة، وهم بذلك منقذون للبشرية من الهلاك وطريق الشيطان (الهوى) حفظا لسنة التوازن في الحياة، التي لا تستقيم إلا مع سلطان النفس المطمئنة إلى ربها راضية مرضية. وتلك في مجمل القول هي صورة من صور الصراع بين الحق والباطل كسنة من سنن الله في خلقه تقتضي النصح، تبدأ على مستوى تربية النفس وتغييرها في نطاق التربية الاجتماعية ووفق مقتضيات مقولة (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) وفي ضوء مستوى إدراك العلاقة البيداغوجية بين النفس والمجتمع كشرط لحصول التغيير (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[١]. كما أوضحها مالك بن نبي في سياقها البيداغوجي (٧: ٥٧ . ٦٦)

وإذ تتأسس مشروعية **النصح** عند الأنبياء والرسل، بموجب حقيقة غواية الشيطان لآدم وهبوطه من الجنة إلى الأرض، كما أنبأنا به القرءان الكريم (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) [٢] فإنه ليس تأسيسا

(١) الرعد . الآية ١١

(٢) البقرة . الآية ٣٦

لفعل معزول ومحدود في الزمان والمكان، بقدر ما هو تأسيس لسنة من السنن الربانية، إذ نشأ عنه ثنائية (الهدى والضلال، الحق والباطل، الخير والشر، الصالحين والطالحين، الرسل، شياطين الإنس والجن) مستمرة في مسيرة الخلق كله، من حيث هي مسيرة تبدأ بالطاعة والحق وعبادة الواحد القهار مع كل نبي، وتؤول في نهاية دعوة نبي، إلى انقسام وثنائية، (الضلال والهدى) مما يستوجب نصح نبي آخر يرسل ويبعث ليقول لهم في أدب والقول اللين "إني لكم ناصح أمين" وقوله تعالى مخاطبا سيدنا موسى وأخيه هارون" اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى(٣) واستمرت مسيرة نصح الأنبياء والرسل باللين والقول الحسن إلى غاية اكتمال الدين (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)(٤) .

ومن ثمة فدعوة الأنبياء جميعهم للفئة الضالة، شرعت في نطاق **النصح**، فمع كل انقضاء مرحلة دعوية وبروز مظاهر الردة والتراجع، يأتي من يقول لمن تراجع وارتد (إني لكم ناصح أمين) فقال تعالى على لسان نبي الله هود (أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين (٥) وعلى لسان نبي الله نوح (...وانصح لكم واعلم من الله مالا تعلمون)(٦) وعلى لسان نبي الله صالح (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين)(٧) وعلى لسان شعيب (لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) (٨) والنصح باق إلى يوم الدين ما دام الإنسان مجبولا على الخطأ،(الإنسان خطاء وخير الخطائين التوابون) وما دامت النفس الأمارة بالسوء أصيلة وفاعلة . وما قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البيهقي في سننه الكبرى (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)* (٨ : رقم ٢٠٧٨٢) يفيد الإغلاق وإنهاء صور النصح، بقدر ما يفيد إيذان لحاجة متجددة لإتمام مكارم الأخلاق، المكتملة نصوصها، واستئناف الأمة لها من حيث هو استئناف لتاريخها الأخلاقي في شكل مشاريع متجددة بتجدد الحياة وأنماطها، لاسيما عند أو عقب كل تأزم للقيم الأخلاقية.

---

(٣) طه . الآية ٤٤،٤٣

(٤) المائدة . الآية ٢

(٥) الأعراف . الآية ٨٦

(٦) الأعراف . الآية ٦٢

(٧) الأعراف . الآية ٧٩.

(٨) الأعراف . الآية ٩٣

* البيهقي . السنن الكبرى . باب بيان مكارم الأخلاق . رقم ٢٠٧٨٢ .

وفعل النصح من حيث هو دعوة لتوحيد الله وعدم الخضوع لغير الله، هو فعل تصادمي بالضرورة مع تسلط البشر على البشر، فالمتسلطون على مختلف درجات التسلط سيدركون أن الدعوة إلى تحرير العباد من عبادة العباد، هي دعوة تسلب منهم سلطتهم وتقوض هيمنتهم، فيتموقعون آليا في مربع العداء للذين آمنوا، وعلى الرغم من ظهور هؤلاء مع كل دعوة نبي، والذين هم . عادة . من كبراء القوم ووجهاءهم، وتحديدا ممن تنشط عندهم النفس الأمارة بالسوء، يضطهد الدعوة و يكذب ويعلو ويستعلي عن النصيحة والناصحين، ويستنكف عن تلقي النصيحة والدعوة والاعتراف بالحق والعبودية لله وطاعته وتأخذه العزة بالإثم ويصر على الاستكبار، فإن الأنبياء والصالحين من الناس أوجب عليهم ربهم أن يصدعوا بالنصح من حيث هو جهر بالحق، فينذرون الأقوام أو الحكام بخطورة ما هم فيه من الضلال، ولا يجوز لهم كتمان الحق، مهما كان وقع المتسلطين، فيقبل من يقبل ممن كان مهيأ لذلك، ويصد من يصد ممن كان مهيأ لذلك، ويحارب الدعوة النصوحة من كان لئيما وآثما .

وبذلك فالنصح من حيث هو واجب تبليغ الحق كلما ظهر الباطل، ومن حيث هو حق المؤمن على المؤمن، بل هو حق البشرية على الأمة الإسلامية الوسطية، ليس خيارا، بل هو حق الانخراط والسعي لتمكين دين الله، لدفع المضار والأذى عن النفس والمجتمع والمحيط، ما دام السجال بين الحق والباطل قائم إلى يوم الدين، وهو أزلي يعود إلى إغواء آدم . كما ذكرنا . ودونه صعوبات ومعاناة ومخاطر، تقتضي الصبر والحلم، من حيث هي من مقتضيات رسالة الاستخلاف وتحمل الأمانة (...وحملها الإنسان انه كان ظلوما جهولا)[1] وهو ما يتطلب الصبر والتوكل على الله، مع التفاؤل وانتظار الفتح بين الناصحين والمنصوحين بدعوة الله وتأييده، بوصفه خير الفاتحين، قال تعالى على لسان نبي الله شعيب (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين)[2] . من حيث أن الفتح هنا هو قبول النصيحة وحصول الاستجابة .

والسعي إلى حصول الاستجابة من النصيحة، ليس وراءه طلب الجاه أو المال أو السلطان، إنما هو سعي تكليفي لتبليغ رسالات ربي لعل الناس يرحمون (لينذركم ...ولتتقوا ..لعلكم ترحمون) .

كما أنه أي النصح، ليس نصحا بما هو شاذ خارج عن طبيعة الإنسان أو عن طبيعة الكون، فتحرير الإنسان من أهوائه ومن كل عبودية أرضية، هو تحقيق للوحدانية، من حيث هي خضوع

(١) الأحزاب . الآية ٧٢

(٢) لأعراف ٧٩

الكون وما فيه، لعبادة الله وحده، ولا هو خارج أيضا عن سياق طريقة التبليغ من حيث هي علاقة حميمية تفاهمية بين الناصح والمنصوح، وتآلف وتقارب وشفقة ورحمة، حيث يقتضي ذلك شرط الرفق بالمنصوح له . كما جاء في قوله تعالى على لسان سيدنا نوح (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) [٣]

ولعل أولى شروط النصح التي تستشف من الآيات الكريمات، هو أن يكون فعل النصح . حتى يأتي ثماره . يجري كعلاقة مباشرة بين مخلوقات من جنس وطينة واحدة، فالفهم والإفهام يستيسران كلما كانت المسافة بين المتلقي والمرسل متقاربة وفي حدها الأدنى، من حيث النوع والنوعية، فيتيسر الإفهام ويحصل الفهم ويبلغ مراد الله، وعليه بعث الله من يقوم بالنصح والتزكية والتعليم (الأكبر) أنبياء من البشر، تحصنوا بالعلم اللدني، من حيث هو تعلم نوعي . بعثهم إلى البشر من جنسهم ونوعهم، باعتبارهم المحتاجين إلى النصح لما أصابهم من ضلال من عند أنفسهم، فلم يبعث الله مخلوقات أخرى كالملائكة تخاطب البشر وتنصحهم، قال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)[١] وقال (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم)[٢] وقياسا عليه يقتضي فعل النصيحة بين البشر بعد توقف التنزيل، وانطلاق سنة التبليغ الحميدة، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث رواه البخاري (بلغوا عني ولو آية)* (٣ : رقم ٣٤٦١) أن تكون المسافة الاجتماعية والعلمية بين المتلقي والمرسل في حدها الأدنى، حيث يجري فعل النصيحة وفق مقتضيات وشروط بيداغوجيا التعلم والتعليم والتي تتحدد عادة كفعل تاريخي بالوضعية، وهو ما سيأتي بيانه لا حقا.

لمن النصيحة :

حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم فئات النصيحة، بوصفها إخلاص وصفاء وعمل تعبدي، في خمس، حيث يقوم المسلم في موقع النصيحة بتقديم حق الله والكتاب والرسول والأئمة والناس بموجب الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم (الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله قال :

---

(٣) الأعراف . ٥٩

(١) الجمعة . الآية ٢

(٢) الأعراف ٦٧

* رواه البخاري . باب ما ذكر عن بني اسرائيل رقم ٣٤٦١ .

لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم) *أو كما قال الرسول .) (٩ : رقم ٩٥) ومما جاء في شرح هذا الحديث أن النصيحة لله تكون بصحة الاعتقاد وإخلاص النية في العبادة والطاعة، والنصيحة للكتاب بتلاوته والتصديق به والعمل بما جاء فيه وتدبره، والنصيحة للرسول بالتصديق بنبوته ورسالته والانقياد لما أمر به ونهى عنه ونصرته . والنصيحة لأئمة المسلمين، بمعاونتهم على الحق وطاعتهم في ما أطاعوا الله فيه، وتنبيههم لأخطائهم وإعلامهم بما خفي عنهم وتقويم اعوجاجهم ما أمكنهم ذلك. والنصيحة لعامة المسلمين بالإخلاص والإحسان إليهم والتكفل بقضاياهم وتعليمهم كتاب الله وسنة رسوله، وإعانتهم على ممارسة أفعال الخير وترك الشر، وترقية وعيهم بحقوقهم وواجباتهم نحو دينهم ودنياهم. فهذه المعاني التي يفيدها الحديث الشريف يجعل من فعل النصيحة تثاقف اجتماعي خيري يمارس دون تراتيبية اجتماعية أو سياسية أو طبقية، فكما يكون من الأعلى إلى الأسفل يكون من الأسفل إلى الأعلى.

ومن ثمة فالنصيحة بمفهوم الصفا والنقاء والوضوح، هي سمة وخاصية من خصائص شخصية المسلم، مهما كانت وضعيته ومكانته الاجتماعية، تظهر في علاقاته مع أفراد مجتمعه أو مع الهيئات المؤسسات، فتوسم سلوكاته وأفعاله بالانفتاح والشفافية والوضوح، في إيمانه وأفعاله، غير خفي ولا غامض ولا مغلق ولا متآمر ولا مجهول ولا منافق، ويلتزم بالمظهر الصفا والوضوح في أي موقع كان ومع أي فرد أو هيأة أو مؤسسة كانت.

ورثة الأنبياء من حيث هم الناصحون.

على الرغم من أن النصيحة فعل تعبدي أخلاقي ميسر يستطيعه كل شخص ولا تتطلب . في صورتها العادية كسلوك يمارس بين عامة الناس . العلم الغزير ولا الجهد الكبير ولا الوقت الإضافي ولا المال، وعلى الرغم من أنها تعد من فروض الكفاية يجزى بها من أقامها، وأنها تصبح لازمة على كل شخص مهما كان موقعه الاجتماعي والعلمي أدرك أنه في وضعية من وضعيات الملزمة للنصح سيستجاب لنصيحته وتقبل منه وتطاع، وأمن على نفسه من أي مكروه، فعلى الرغم من ذلك كله، إلا أن العلماء بوصفهم ورثة الأنبياء بموجب حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه الترمذي (إن العلماء هم ورثة الأنبياء) * (١٠ : رقم ٢٦٨٢) هم أقدر الفئات الاجتماعية بعد

** رواه البخاري في صحيحه .(الدين النصيحة . رقم ٥٧ .

* رواه الترمذي . باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم ٢٦٨٢ .

الرسل على أداء النصيحة وإسدائها لكل الفئات المذكورة في الحديث السالف ذكره . بما يتميزون به من إخلاص وتقوى وعزيمة وصبر وإدراك للحق وعلم وقدرة على التمييز بين المتشابهات وتقدير للزمان المفيد للنصيحة ومكانها وكيفيتها...الخ فانقطاع الوحي ونهاية تاريخ تنزيل النص القرآني وغياب الرسل من المشهد الدعوي في الحياة الدنيا، هو إيذان لاستئناف رسالة الأنبياء من المؤمنين الصالحين وواجبهم في النصح والإرشاد والقول السديد، والاستمرار في رسالة إتمام مكارم الأخلاق .ويأتي في مقدمة الصالحين من المسلمين المكلفين بالنصح، العلماء الخاشعين والخاشين الله المطيعين للرسول كما وصفهم الله(إنما يخشى الله من عباده العلماء)[1] . ولعل أبرز ما يختص به العلماء في مجال النصيحة . هو مجال ما يفيد الأمة وما يضرها، والنظر والتأكد من صحة ومشروعية كل ما هو قديم أوافد أو محدث (مشاريع مستقبلية، تحيين المعرفة التراثية، الثقافات الوافدة، الإبداعات العلمية، المكتشفات، والمحدثات من الأمور...الخ من حيث أن ذلك المستوى من المعرفة الواعية، غير متاح إدراكه لعامة الناس، لتبيان ما هو جدير بالإقتداء ومطلوب لخدمة الدين والدنيا، وما هو متعارض مع الدين، وما هو متشابه . فالأمور كما قال عمر بن عبد العزيز ثلاث (أمر استبان رشده فاتبعه، وأمر استبان ضرره فاجتنبه، وأمر شكل عليك فتوقف عنده) .

أخلاقيات وشروط ممارسة النصيحة :

النصيحة ليست مهنة للارتزاق من ورائها كسب تقتضي مهارات محددة، بقدر ما هي صحوة ضمير، وفعل أخلاقي في حد ذاته يجري . في أغلب صوره بصورة عفوية وفي أحيان مخططة هادفة، تمارس (قولا أو فعلا) كعلاقة بين الذوات، وكل ما قيل بشأن أخلاق الناصح، وأخلاق المنصوح له، وأخلاقيات فعل النصيحة، لا يخرج عن ما يسمى حديثا بـ " الذكاء الاجتماعي والوجداني" ولكنه مقرونا بالروح، من حيث هي هنا تجليات لحب الله ورسوله، فلا تستقيم النصيحة إلا إذا كانت لوجهه تعالى، فلا تكون النصيحة كلمة طيبة كشجرة طيبة تأتي أكلها كل حين، إلا بالقيام بها ضمن مجموعة أخلاقيات خاصة تضبط الاشتغال بالنصيحة بين الذوات وضمن شروط، تتعلق بموضوع النصيحة .

. فأما أخلاق الناصح فيتصدرها **الحب**، من حيث هو حب الآخرين منبثق عن الإيمان يدفع الناصح لخدمتهم، وللمصلحة التربوية لا يجب أن يكتم الناصح حبه للمنصوح له، فينصح الناصح

(١) فاطر . الآية ٢٨

حين ينصح بإظهار الحب للمنصوح له، فالرسول يعضنا في هذا المجال بقوله (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه) . * (٣ : رقم ١٣) وهو أي الحب، خصلة من خصال الإيمان تقي من الأنانية وحب الذات الزائد، وتقي مما يعد من الحرية الشخصية في التمتع الزائد بالشهوات، ويجعل النفس تصبوا للآخرين مشبعة بالغيرية الإيجابية، تقي الفرد من كل مظاهر النفاق الاجتماعي، من حيث هو نصح للانتفاع الشخصي ولغير وجه الله .

الإخلاص : وتعضد هذه الخصلة الأخلاقية (الحب) خصلة أخرى من جنسها وهي الإخلاص، فالناصح المحب لغيره لا يكون إلا مخلصا عمله لله وحده، واستجابة لأمر الدين، فلا يرتجى من إسدائه النصح لغيره المخطئ، لا مالا، ولا جاها، ولا عزة ولا شكرا من أحد، ولا يحذوه في ذلك إلا مرضاة الله ورسوله.

الصدق: والإخلاص في النصيحة لن يكون ولن يتحقق إلا بالصدق من حيث هو صدق النية وصدق ما يقوله وما ينقله وما ينصح به وهو نقيض الكذب والزيف. فلا تستقيم النصيحة إلا بالصدق.

الأمانة: فالأمن والأمان من الخصال الحميدة التي تحكم الناصح، وهي مقرونة بالصدق (إني لكم ناصح أمين). وما سخر الإنسان لأخيه الإنسان، وما سخر الله الموجودات من الكون للإنسان، إلا من أجل حفظ الأمانة من حيث هي حفظ للدين في مفهومه الشمولي .

القدوة: فالناصح الصادق والأمين والمخلص لا يكون كذلك، إلا أن يكون هو قدوة في ما ينصح، فقد قال الحكماء (عظ الناس بفعلك) . وقال الشاعر حافظ ابراهيم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

. **الصبر** : سمة من سمات أولي العزم، هو صفة أخرى يتحلى بها الناصحون، والمقصود به تحمل الأذى المحتمل، من حيث أن تحمل الأذى هو في جوهره من معاني وشمائل صدق الإيمان والقناعة والوفاء والرفق.

موضوع النصيحة :

كل سلوك منحرف . بمقاييس ومعايير الدين . يمكن أن يؤذي ويضر ولو بصفة جزئية، مقاصد الدين الكبرى (النفس، المال، والنسل، الدين، والعقل) أوكل ما من شأنه أن يمس الأخلاق

* رواه البخاري في صحيحه باب من الإيمان ...رقم ١٣ .

العامة أو يخرج عن المعروف والمألوف الحسن، أو إتيان المنكرات والموبقات والسيئات ولو كان بشكل مستتر، أو ما كان قد ثبت خطؤه علميا وتجربة ومضاره أكثر من محاسنه، هو مجال للنصح والإرشاد، فمجال النصيحة ليس كما هو مألوف عند الكثير فعلا مقصورا على كبح الشهوات فقط، بل أن الشهوات في أصلها لا تكون موضوعا للنصح والإرشاد، إلا بعد أن يشوبها هي ذاتها ظلم ، إن بالتفريط أو الإفراط، فالتفريط في إتيان المرء لشهواته سلوك منهي عنه شرعا ويكون موضوعا للنصيحة، إذ ما هو معلوم من الدين أنه لا يجب أن يمارس المرء الحرمان على نفسه (فشهوتي البطن والفرج، . وما يعرف بالحاجات الأساسية الأولية . وكل الشهوات الأخرى، كالكلام وحب الحياة وحب المال ...الخ مطلوب إشباعها في نطاق المعقولية والروحانية . ..فلبدنك عليك حق.. (وابتغ في ما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك) [(١)] والإفراط في الشهوات المنهي عنه، هو أن تصبح الشهوات هوى النفس وحبها، وأن تكون النفس منزوعة الروح وخاضعة كليا لمطالب الجسد، وتصير ملحقة به،. وهي الصورة التي تجعل من الإنسان ظالما بالضرورة لنفسه وللآخرين، بما سيقع فيه من تعارض في الرغبات والواجبات وهي حالة مرضية موجبة للنصح.

من شروط الناصح والمنصوح له :

الناصح في موضوع محدد، لا يكون أثناء النصح، إلا وهو في منزلة من إدراك موضوع النصح، وتشخيص الخطأ، أعلى منزلة أو أعلى وأصدق إدراكا من المنصوح له، من حيث أن المنصوح له هو المحتاج إلى النصح وتعديل آرائه أو أحكامه أو أفعاله وسلوكه المحكوم عليها بالخطأ بمعايير دينية أو مجتمعية ثقافية، أو علمية، وإلا فلا معنى للنصيحة من حيث هي الحق الذي يكون المنصوح له قد حاد عنه، ومن ثمة فمن المفترض في الناصح أن يكون ذا علم بموضوع النصيحة، وليس بالضرورة ذا علم راسخ متفوق عن المنصوح له في كل المجالات، فالنصيحة قد تأتي من أمي إلى عالم، وقد تأتي من الرعية إلى الراعي، وقد تتجه من الأبناء إلى الآباء، ومن البنات إلى الأمهات ومن التلميذ إلى العلم . ومن ثمة فالنصيحة كفعل اجتماعي، هو فعل يمارسه كل فرد من موقع العلم بالنصيحة، وليس من موقع الرسوخ في العلم ولا الجاه ولا السلطان، وهو دور وظيفي يتحدد بالاستطاعة والعلم بموضوع النصيحة وقت حدوث الخطيئة لا غير .

(١) القصص . الآية ٨٨

فالعلم بموضوع النصيحة، وحده الأدنى أن يكون الناصح على يقين من صحة ما ينصح به على أنه خير، ولا يجلب إلا الخير والنفع للمنصوح له، ولا يتضرر به أحد . ومن الحكمة، أن يميز الناصح ما يعرفه وما يجهله من موضوع النصيحة

وأما أخلاقيات المنصوح له، فأبلغها وأجمعها، تجلى في وضعها موضع كالهدية تهدى، حيث لا تهدى الهدايا إلا للحبيب، ذلك كما وضعها عمر بن الخطاب، حيث قال " رحم الله امرؤ أهدى إلي عيوبي) . ومن تداعيات خطاب النصيحة كهدية للعيوب وتبصرة، يتصدرها الإنصات والاستماع تحقيقا وامتثالا لقوله تعالى (وإذا قرئ القرءان فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)[1] . باعتبار أن قراءة القرءان، إن هي إلا تلاوة لنصائح الله ونواهيه وأوامره، تقتضي حسن الاستماع من حيث أن الاستماع والإنصات، يشكلان أهم أركان العلاقة التواصلية بين الذاوت وشروط نجاحها.

القابلية للنصح والترحيب بها : ومن العلامات الايجابية للإنصات والاستماع للحق، إظهار المنصوح له الترحيب والاستعداد بشغف لتقبل النصيحة من الناصح بعينه، واستبعاد كل ما يوحي للامبالاة وعدم الاكتراث أو استنكاف أو تكبر . عملا بقول عمر رضي الله عنه (رحم الله من أهدى إلي عيوبي .)

التصميم والعزم : والقابلية للنصح تقود إلى الاهتمام بالنصيحة وتوليد الدافع القوي للتغيير، من حيث هي إشارات أخلاقية ترسل للناصح من المنصوح له على إمكانية حدوث الاستغفار الذي لا كبيرة معه، فيمنع تسرب اليأس حتى ولو فشل الحوار، وخرج عن أخلاقياته وصار جدلا عقيما، وإصرار لا صغيرة معه، فيقال أنه لا صغيرة بعد الإصرار، ولا كبيرة بعد الاستغفار، فالاستعداد للتوبة والعزم على الإقلاع عن الخطيئة هي أخلاق تتوج بها فضيلة الحوار بين الناصح والمنصوح له.

ونستنتج من هذه المفاهيم والمعاني السامية للنصيحة، أنها فعل تثاقفي يجري بين أفراد المجتمع بتلقائية وحرية عالية الإحساس بالمسؤولية وأداء الواجب الديني والاجتماعي حفاظا على الحرية ذاتها، وهو ما يقودنا إلى ضرورة تفحص معاني الحرية التي تكون متساوقة مع فعل النصيحة، وبل هي من شروطها .

---

(١) الأعراف الآية ٢٠٤

مفهوم الحرية:

ارتبطت معاني الحرية في اللغة العربية بنقيضها (العبودية، والأسر والاسترقاق) فجاءت بمعنى عتق رقبة (فيقال حرر العبد أعتقه وأخرجه من الرق والعبودية للآخر، ويقال أعتقه لخدمته ولا يشغل بشيء غيره، وتضمن معاني كـ "الأصل الشريف" فيقال فرس حر بمعنى عتيق، وحر الأصل شريفه، ويقال هو من حرية قومه أي من أشرفهم، وكـ "الصفا" فيقال طين حر بمعنى خال من الرمل وكـ (الطيب " فيقال حر الأرض أطيبها ، وكـ "الإبانة" فيقال "حر الوجه" بمعنى ما بدا وظهر من الوجنة، حيث أكرم موضع في الوجه وأحسنه .(١ : ١٢٤) . ومن ثمة فالصفا والإبانة والوضوح وعدم الغموض أو اختلاط يضفى على الشيء أو الشخصية، هي المعاني المركزية اللغوية للحرية، وهي معاني إيجابية تفيد عدم خضوع الشخص لشخص آخر في قراراته ومواقفه وسلوكه، مما يجعله غير واضح في وجوده كمستقل غير مرتبط ولا تابع ولا مقيد. وقد قيل لعنترة العبسي "كر " فقال العبد لا يحسن "الكر"، فقيل له كر فأنت حر. بمعنى لا تنتظر الأوامر وتحمل مسؤوليتك في الذود والدفاع عن الحوض .

المعاني الاصطلاحية للحرية

الحرية من المفاهيم الأكثر خضوعا للاستقطاب الفلسفي والفكري والأيديولوجي وحتى العلمي، ويعتقد المفكرون أن خلاصات الفكر الليبرالي والاشتراكي، إن هي إلا الصيغة الإجمالية الناضجة في استقطاب الحرية، حيث تطور مفهومها إلى مذهب يعرف بـ "مذهب الحرية " تنازعها كل من النزعة الليبرالية والاشتراكية، وتهتم بالحريات الفردية والجماعية . ومن تداعيات الاستقطاب الفكري لمفهوم الحرية في ظل النظامين أو النزعتين، أن نشأت عدة صيغ من الديمقراطيات والحكومات والبرلمانات.مما يصعب علينا الإلمام به في هذه الورقة ونكتفي بأهم مفهوم اجتماعي مرتبط بموضوعنا وهو المفهوم الذي يبرز الحرية كما لو انها تحقيق الذات في وسط اجتماعي، وهو ما يجعلها شرط للتكيف .

مشروعية الحرية

تأسست الحرية على جملة من المنهيات تتعلق بالاستعباد والعبودية لغير الله، فالنهي عن الرق يتضمن بالضرورة تحريم الاستعباد وتشريع للحرية، حيث جاء في القرآن الكريم ثلة من الآيات

الكريمات، ما يفيد استهجان استعباد الإنسان، وجعل من عتق الرقبة وإنهاء عهد العبودية من الكفارات التي يكفر بها العبد ذنوبه فقال تعالى (. فك رقبة أو إطعام في يوم ذا مسبغة، عتق رقبة السورة) [1] . وقد ورد عن عمر رضي الله عنه كما جاء في كتاب عصر الخلافة الراشدة لأكرم بن ضياء العمري أنه قال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . (١١ :) وورد عن علي كرم الله وجهه أنه قال: لا تكن عبدا لغيرك وقد خلقك الله حرا . وقيل أن حفظ (الأصول الخمسة) الدين والعقل والنفس والمال، والنسل)مشروط بالحرية، وأن كلها ينهار في حالة الانقلاب على الحريات العامة والخاصة، فتصبح كلها عرضة للانتهاك والاعتداء .

ولاقتران معاني الحرية . إن في بعدها الفردي أو الاجتماعي . بمقاصد الدين، فإنها تكون بالضرورة مقرونة بموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من حيث أنه موضوع شرع هو الآخر لحفظ الكليات الخمسة، وهو ما يقودنا إلى ضرورة تبيان معانيه للوقوف على صلته بكل من الحرية والنصيحة .

في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

استنادا للحديث الشريف (الدين النصيحة) . المشار إليه آنفا . يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جزء من النصيحة، أو هو أحد أوجهها، يقوم به كل من استطاعه، وقد يكون الوجه الممأسس للنصيحة، يتجلى في وظائف الولايات الشرعية، وعليه فقد يحدث أن تصاغ النصائح في شكل أوامر ونواهي مباشرة تتعلق بجملة من مواضيع النصح، أو تقنن في منظومة من القوانين والتشريعات يتأهل للقيام بها أفراد ومسئولين على مختلف مستويات الولايات الشرعية.

ولبيان معان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كقاعدة سلوكية إسلامية يستحسن بداية تفحص معان مركباتها اللفظية الأساسية (المعروف، والمنكر) كما وردت في القواميس اللغوية.

ف "المعروف" كما جاء في القاموس هو النصيحة التي يسديها المرء إلى غيره، (١٢: ١١٠٣) مثله كما قال تعالى (فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف)[1] وأما المنكر فهو كل ما

(١) البلد . الآية ١٣ ، ١٤

(١) البقرة . الآية ٢٣١

تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو يقبحه الشرع ويحرمه . (١٢ : ١١٥٧) وكما قال تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)[٢]

فالأفعال من هذا المنظور منقسمة أخلاقيا إلى (**معروف**، وهي كل الأفعال الايجابية النافعة عقلا وشرعا، يستحسن أو يجب إشاعتها بين الناس ويؤمر بفعلها، **ومنكر** مستهجن ضار (عقلا وشرعا) يقتضي منعه بين الناس، وينهى عن فعله لما فيه من ضرر في ذاته. وصيغة الأمر والنهي تفيد عادة الخطاب الإلزامي، يصدر في أغلب الحالات من الذي يعلم، إلى الذي لا يعلم .بصيغة(افعل كذا وألزمه لأنه خير، ولا تفعل كذا وتجنبه لأنه شر) .

وهو ما يفيد أن المعروف هو مجال السعي لفعل الخيرات ونصح الناس وتحفيزهم على فعل كل ما ينفعهم، إن في مجال العبادات أو المعاملات، كتذكير الناس بالواجبات والفروض الدينية وحقوقهم وحل ما أحل الله لهم وتحريم ما حرمه، وتحفيزهم على الكرم والتكافل والجود والسماحة والعفو وإعانة المحتاج وكفل اليتيم والعناية بالرعية والإنفاق في سبيل الله والجهاد، وأن المنكر هو مجال الهجر والابتعاد عن كل ما يضر، والسعي إلى تجنيب الناس الوقوع في مطبباته وحرصه على توعية الناس ونهيهم عن التقرب من مشبهاته (الفسوق والعصيان والبدع والشح والبخل والربا وقطع الرحم والحسد والبغضاء والظلم والبغي وحل ما حرم الله وتحريم ما أحله) . وقد جاء في الحديث الشريف ما يفيد وجوب تغيير المنكر في قوله صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.) وتلك هي المعاني التي تقربنا إلى المفهوم الاصطلاحي كما تعاطاه ذووا العلم والمعرفة .

المعنى الاصطلاحي :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصطلح إسلامي قرآني بالأساس يشكل قاعدة سلوكية إسلامية كبرى، تفيد أن ما جاء به جميع الأنبياء وخاتمهم نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، يختصر في تبليغ . على لسانهم . ما أمر به الله ونهى عنه، فالرسالات كلها أمر من الله موجه لخلائقه من البشر بالمعروف، ونهيه لهم عن فعل المنكرات وهجرها، بل إن استخلاف الإنسان في الأرض إنما هو تكليف للإنسان لحمل أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن ثمة فالمسح العام لمعاني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما هو مشاع في الثقافة الإسلامية ، يرصوا بنا إلى مفهوم

---

(٢) العنكبوت . الاية ٤٥

لا يخرج عن كونه " **قاعدة سلوكية من قواعد الدين الأخلاقية التي تحكم العلاقات بين أعضاء المجتمع الإسلامي، ملزمة للأفراد والجماعات والمؤسسات كل في نطاق موقعه وحدود استطاعته، تهدف إلى شيوع الأمن وحصار الخوف بحفظ القواعد الخمسة** (**الدين، العرض، المال، النفس، النسل...**) . **وهو مفهوم يكاد يكون متطابقا في المعنى مع النصيحة.**

وبالرجوع إلى شيخ الإسلام بن تيمية، في تفصيله لحيثيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نجده يدرجها ضمن إتمام الأخلاق والرسالة، كلف بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده، وهي الصفة التي ميزت وتميز المجتمع الإسلامي القائم في علاقاته على إتمام الرسالة واكتمال الأخلاق المعيارية السامية التي يجب أن تشاع بين المسلمين، حيث أوضح أنها هي الوظيفة السامية لكل الأنبياء والرسل، من حيث هم مبعوثين يأمرون الناس بالمعروف والبر والإحسان، وينهونهم عن الإثم والعدوان واقتراف المنكرات والذنوب . وتميز النبي بأنه المتمم والمكمل لما كان ناقصا من مكارم الأخلاق، كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث رواه البيهقي في سننه الكبرى (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) . (٨ : ٢٠٧٨٢) . كما بين أنها صفة من صفات الأمة الإسلامية من حيث هي أمة حية مستمرة ورثتها عن نبيها الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، في نطاق استمرار مهمة اكتمال الدين وإتمامه من حيث هي وظيفة ترتبط بحياة الأفراد والمجتمع، فقد قال بن مسعود رضي الله عنه (الميت من الأحياء، الذي لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا). أو كما جاء في المعجم الكبير للطبراني حيث قال بن مسعود رضي الله عنه (يذهب الصالحون أسلافا ويبقى أهل الريب من لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا) وهو واجب مستحب، إذ بعدم تغيير المنكر بأدنى الوسائل وأضعف الإيمان "بالقلب" الذي لا يضر، يفقد المرء . حسب بن تيمية . صفته الإيمانية، استنادا إلى حديث الرسول الذي يفيد أن التغيير بالقلب هو أدنى وأضعف الإيمان) .(١٣ : ٧٨)

فالنهي المقصود كصفة وظيفية للأنبياء والرسل، كما جاء في رسالة شيخ الإسلام بن تيمية، يتضمن وجوب بيانهم لما حرمه الله من الخبائث وإبعاد الناس عنه، والأمر يتضمن وجوب بيانهم لما أحله الله من الطيبات ونصحهم أو حملهم الناس على فعله والالتزام به. فالطيبات من الأفعال والأقوال كلها من جنس المعروف والإحسان، ومن طينة كل ما ينفع الناس وما يعلمهم من الحكمة

وما يزكي أعمالهم في الدنيا والآخرة، تحب أي الطيبات، إشاعتها بين الناس بكل الوسائل (المال، الجهاد بالنفس، الكلمة الطيبة، القدوة) يمارسونها كأفعال تغشى حياتهم، ابتداء من إفشاء السلام بينهم والحب في الله والتنافس على فعل الخير والطاعات وأداء الواجبات والفروض والتعاون على البر والكرم، وصون الآداب والأخلاق العامة وحفظ حقوق الناس وأمنهم، وحب العلم والعلماء وذوي الفضل والصالحين، والغضب عند انتهاك حرمات الله، مرورا بالتعاون والإخلاص والتواد والتراحم والتآخي، إلى ألأمر بالرفق وتحمل كل راع لمسؤوليته عن رعيته .

وهي المقابل المضاد للخبائث من حيث كلها من جنس المنكر منهي عنها، تحب أي الخبائث، منعها ومحاربتها بكل الوسائل (المال، الجهاد بالنفس، المنع بالكلمة الحسنى، الهجر..الخ) . كالنهي عن الغيبة والنميمة والكذب والغش ومنع كل المحرمات والموبقات والابتعاد عن المكروهات والبدع وتكفير الناس والحسد والتناجي بالإثم والعدوان وظلم الرعية والاعتداء على الحريات الفردية والعامة وأكل حقوق الناس بالباطل. وشهادة الزور..الخ وهو ما يعني جملة النهي عن كل ما يهدد الأصول الخمسة (المال، الدين، العرض، والنفس، والنسل).

شروط ومقتضيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متاح فعله لكل الناس، وليست موضوعاته وتقديراتها في متناول كل الناس، فهو من التعقيد في موضوعاته ومحله ووسائله وتوقيته ما جعل العلماء يشترطون شروطا للقيام به حتى لا يصير ويتحول منكرا . إذ قد يشتبها أو يتكافآ كل من المنكر والمعروف في وقت واحد يصعب ترجيح أحدهما عن الآخر من حيث تقدير المنافع والأضرار، ويصعب تحديد الأولويات وتمييز بين منكر ومنكر آخر قد يكون أسوأ وأكبر منه، أو معروف أعظم من معروف . والتصرف العشوائي في كل ذلك قد ينتج عنه فوات المعروف أو منعه، أو يحصل ما هو أنكر من المنكر الحاصل . فإزالة منكر يتبعه إزالة معروف أعظم منه يوقع في معصية وعدم تقدير دقيق لتمييز معروف عن معروف، قد يفوت معروف . وعليه كان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضوابط وشروط في تفصيل العلماء، يمكن الإشارة إلى بعضها بما يسمح به المقام ويفيد موضوعنا في ما يلي :

فبالنظر إلى ما وضعه الفقهاء والعلماء من شروط للقيام به، نجد أولها، أن يكون الأمر مقرونا بـ "الخير" من حيث هو تلك الخصال والأفعال والأقوال والمواقف التي وقع عليها إجماع المسلمين

بخيريتها وصلاحها، أو هي من مقتضيات المعلوم من الدين بالضرورة وتبعاته، أو في ما هو واضح خير بذاته، وأن يكون النهي مقرونا بمنع الشر وإزالته من حيث هو كل ما وقع عليه إجماع المسلمين بميزان الشرع أو العقل بأنه مفسدة أو يجلب مفسدة للمسلمين يجب درؤه . أي أن كل من الأمر والنهي المقصودين يشترط فيهما أن يجلبا المنفعة والخير أو يثبتاهما، ويدرآن الفساد ويمنعان وقوعه. وأن من يقوم بالأمر والنهي لوجه الله يعدان من المصلحين الصالحين .

وشرط اقتران الأمر والنهي بـ "الخير" يقود إلى شرط ارتباط مفهوم الخير والشر بما يرضي الله ورسوله، وبما يفيد عبادته سبحانه وتعالى، وليس بما يرضي الأهواء والرغبات النفسية. (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)[١] فلا يجوز للآمر والناهي أن يتبع في ذلك هواه، ولا يجوز للمأمور والمنهي أن يفعل أو يترك بهواه لقوله تعالى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله)[٢]

وشرط الاقتران بمرضاة الله ورسوله، يستوجب على الآمر والناهي، العلم والمعرفة والوعي بما هو من الدين، وما هو من الأهواء، والقدرة على التمييز بين مستويات الخير والشر وتحديد الأولويات، وتقدير المعروف الذي لا يؤدي إلا إلى المعروف مثله أو أقل منه أو أكثر، ولا يؤدي إلى منكر أو معصية، إذ من المفترض في كل معروف أن يكون ذا تبعة خيرة (... إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)[٣] السورة العنكبوت الآية ٤٥ ويستوجب على المأمور، الوعي بما هو من الدين وما هو من الهوى والاستعداد للاستجابة لفعل الخير، وترك المنكر إرضاء لله ورسوله، فقد قال عمر بن عبد العزيز (من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، وقال الرسول العلم إمام العمل والعمل تابعه . (١٣ : ٨٤ . ٨٥) وهو ما يحيل إلى شروط أخرى مستتبعة كالرشد ورجاحة العقل والرفق والصبر، وقوة الحجة والبرهان ووضوح الخطاب وإتقان بيداغوجيا الترهيب والترغيب، في حالة التغيير باللسان، والإعداد المادي في حالة التغيير باليد، والتزام الرفق بالناس المأمورين والمنهيين والأخذ بيدهم بكل عطف وحنان لقوله تعالى (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة)[٤] ولقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (إن الرفق لا يكون

---

(١) النازعات . الآية ٤٠ ، ٤١

(٢) القصص . الآية ٥٠

(٣) العنكبوت . الآية ٤٥ .

(٤) البلد . الآية ١٨

في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه) *وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر رواه البخاري (إن الله يحب الرفق في الأمر كله) **. (٩ : رقم ٧٨) والإعداد النفسي في حالة التغيير بالقلب بأن يهجر الفعل هجرا جميلا صابرا بما يفيد نفسه والآخرين، ولذلك قيل " ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر) . ولا يكون كذلك إلا باستحضار هذه الشروط لاسيما العلم قبل الأمر والنهي والرفق معه حين ممارسته والصبر بعده فكما قيل عن السلف (أنه لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به، فقيها في ما ينهى عنه، رفيقا فيما يأمر به، رفيقا فيما ينهى عنه، حليما فيما يأمر به، حليما في ما ينهى عنه) (٧: ٨٧) .

وعلى الرغم من صعوبة أداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب شروطه التي ذكرت، فلا يسقط كواجب اجتماعي، لان إسقاطه وتركه، ترك وإسقاط للواجب الديني ابتداء من مثل درء السيئات (الفسوق العصيان والفجور والظلم والبدع) . وكل ما ينبثق عن الإنسان كونه ظلوما جهولا . التي تهدد الحرث والنسل، فلا يجوز بحال من الأحوال تركه، لحرمتها (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن)[1] فما عوقبت أمم كقوم لوط ونوح وعاد وثمود وفرعون كما ذكر القرآن الكريم إلا بتركها هذا الواجب، مما أشاع بينهم الفساد المبين، ويتعين من ذلك واجب سعي كل نفس لإحراز شروطه والتمكن من أدائه في نطاق وجودها الاجتماعي ، حتى لا تذنب كل الأمة بتركه.

ومن تبعات أو تجليات النفس المنقسمة إلى أمارة بالسوء، واللوامة والمطمئنة، تعددت صور المجتمع وتلونت تبعا لذلك إلى ثلاث ، مجتمع الذين آمنوا وعملوا وأدوا الأمانة وأقاموا الدين في نفوسهم ومحيطهم، وهم من تداعيات النفس المطمئنة الصالحة، وقوم تمادوا في إرضاء الأهواء ويتفانون في إشباع الشهوات من غير رشد روحاني، ولا يقيمون لغيرها وزنا إلا بمقاييسها الغريزية الشهوانية يبذلون الجهد في ما يرضيها ويغضبون لغضبها (النفس الأمارة) ويعينون الظالم تبعا لذلك، وقوم يتأرجحون بين هذا وذلك فيفعلون الذنب ثم يتألمون ويتوبون ، وهو ما كان مدعاة

* رواه مسلم في صحيحه . باب فضل الرفق . رقم ٧٨ .

** رواه البخاري في صحيحه . باب الرفق في الأمر كله . رقم ٢٠٢٤

(١) الأعراف ٣٣

للقول بوجوب العدل بين الناس وإشاعة التنافس على فعل الخير ودفع الفتن عنها، ومقابلة السيئات بأعظم الحسنات. (.وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)(٢) .

فوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسن سنة النصح، إنما هو يدخل ضمن تعليم الناس حب الإيثار والإنفاق والتضحية والشجاعة في البذل والإيتاء والبذل والعطاء، وذم البخل والإغلال والتمركز حول الذات وتبديد نزعة الإعجاب بالنفس، فكل هذه الأخلاق إنما هي الصالحات عند كل البشر، فأنت إذا نصحت، فإنك أعطيت وأتيت الآخرين حقهم عليك، وأشرت إليهم بالطريق المستقيم وشاركتهم في ما تملك من معرفة، وكانت لك شجاعة واستعداد للتضحية، ورجوت من وراء ذلك مغفرة من ربك وهو ما لا يرجونه. وقد جسد هذه المعاني السامية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما جاء في جامع معمر بن راشد، وورد عند البيهقي في سننه، حيث قال (يا أيها الناس القوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم القوي عندي حتى آخذ له الحق، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله، فلا طاعة لي عليكم)* (٨ : رقم ١٣٠٠٩) ، (**١٥ : رقم ٢٠٧٠٢**) وهي نفس الوظائف التي ورثتها الأمة عن الرسول، فكانت خير أمة أخرجت للناس لا لنسبها وحسبها وكثرتها، بل لما تأمر به من معروف وتنهى عن المنكر. فالأمر والنهي ملازمان لحياة الإنسان فردا كان أم جماعة، فكما أن الفرد ينهي نفسه ويأمرها، فكذلك الأمة تأمر نفسها وتنهاها عن أشياء، فلم يجتمع اثنان إلا وكان بينهما أمر ونهي . وإن هو فرض كفاية لا يجب على الفرد بعينه ولو تمكن منه، فإنه لا يجب التفريط فيه ويجب تكليف من يقوم به، ما دام هناك من يقوم بما هو ضد المعروف باق، وهم المؤتمرون بالنفس الأمارة بالسوء (الآمرون بالمنكر والناهون عن المعروف) . وما شرعت إمرة المؤمنين وولايتهم والتصرف في شؤونهم وتنظيم حياتهم وتأمين حقوقهم وضمان واجباتهم إلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فبناء المؤسسات وسن القوانين وإصدار الأوامر والنواهي على مختلف المسؤوليات والوظائف والمهن (الزراعية والتجارية والصناعية والسياسية والتربوية) كل ذلك يعد من مقتضيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوصفها آلية، ترغم الناس ـ إذا امتنعوا ـ عن فعل الخير على فعله وترغمهم على ترك الشر إن هم امتنعوا على تركه

(٢) المطففين . ٢٦

* جامع معمر بن راشد . باب لا طاعة في معصية . رقم ٢٠٧٠٢ . ورواه البيهقي في سننه باب ما يكون للوالي الأعظم . رقم ١٣٠٠٩ .

. وما الولايات التي أسسها وعينها الرسول، وأوامره على السرايا وأخذ الزكاة ودفعها إلى مستحقيها وحسابه الأوفى على العمال، وأمره كولي لفرد أو لجماعة بإنجاز ما يحتاجه المسلمون ولم يقم به أحد، كأمر ولي المسلمين بوجوب زراعة المزارعين لأراضي المجاهدين المرابطين. فإن ذلك حقهم على المزارعين كما كان الجهاد حق للمزارعين قام به المجاهدون القادرون .(١٤ : ٣٠ . ٣١) .

في مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المشروعية الشرعية :

تأسست مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بموجب عدة آيات كريمات وأحاديث نبوية شريفة كفريضة شرعية، تندرج ضمن منظومة فروض الكفاية، تتم في نطاق الأمة الإسلامية، من حيث هي أمة منظمة، فإذا قام بها البعض سقطت عن الباقين، ويذنب الكل إذا لم تقام. ومن الباحثين من يدرجها ضمن أركان الإسلام وأصوله بجانب الأركان الخمسة، ولا تقل أهمية عنها، لكونها سمة مميزة للجماعة الإسلامية عن باقي الجماعات والأمم الأخرى . فهي بحسب بن تيمية مبرر جميع الولايات الكبرى والصغرى، يقوم بها القادرون من ذوي السلطان، بحسب مستوى الولاية والوظيفة في ضوء شروطها الأخلاقية والموضوعية .(١٤ : ١٥ . ١٧)

وبموجب الحديث الشريف، فهي مسؤولية مباشرة تقع على عاتق كل من عرف المنكر، حيث بإدراكه له تجب عليه تغييره بقدر استطاعته (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان .)

ووردت في القرآن الكريم كوظيفة شرعية للأنبياء والرسل وللأمة الإسلامية في سياقات عدة متقاربة من حيث المعنى الوظيفي:

فهي من وظائف النبي الأمي الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر كما أنبأت به التوراة والإنجيل تتعلق بتبليغ النور الذي أنزل عليه، وإخراج الناس من الأغلال التي كانت عليهم، وهو ما يعطيها معنى من معاني تحرير الإنسان من الأغلال، ومن اتبعه في ذلك يصبح من المفلحين، وهو المعنى الذي ورد في الآية الكريمة (الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر)[1]

(١) الأعراف . ١٧٥

وإلى معنى فلاح وصلاح كل من قام بها بوصفه مؤمن، وهو القريب من المعنى السابق، أشارت الآيتين الكريمتين (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هو المفلحون).[1] والآية الكريمة (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين)[2]

وجعلت منه الآية الكريمة (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله)[3] الفعل المميز للأمة عن باقي الأمم الأخرى (الكفار، وأهل الكتاب) من حيث هي أمة أخرجت:

. لتكون خيرة متميزة بهذه الوظيفة من حيث هي وظيفة إظهار الدين وإشاعته كأخلاقيات يتمثلها الناس في سلوكهم، مما يشيع الأمن النفسي والاجتماعي، ويحاصر في نفس الوقت الآفات الاجتماعية ويمنعها من الظهور إن في النفس وإن في المحيط الاجتماعي .

. ولتكون في ذلك كذلك امة وسط (وكذاك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)[4] كنموذج يحتذي به الآخرون (الأمم المخالفة) تمارسهما كجماعة مؤمنة .

وأنبأنا القرآن أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة مميزة للعلاقات بين المؤمنين داخل المجتمع الإسلامي، من حيث هم أولياء لبعضهم البعض حين يمارسون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل متبادل . (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء لبعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)[5] ووردت كما لو أنها ضرورة شرعية ما دام هناك المنافقين مندسين هنا وهناك من مواقع المجتمع الإسلامي، وهم الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف (المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف)[6] وهم يتبادلون معرفيا، من بعضهم البعض، الدسائس والمكر وإشاعة الفحشاء، دون أن يكونوا أولياء لبعضهم البعض، كما هو الحال لعلاقة

---

(١) آل عمران . ١٠٤

(٢) آل عمران . ١١٤

(٣) آل عمران . ١١٠

(٤) البقرة . ١٤٣

(٥) التوبة ٧١

(٦) التوبة ٦٧

الولاية بين المؤمنين، فالولاية مستوى من العلاقات التي تشترط الشجاعة والإخلاص وتحمل مسؤولية التعاون والنجدة والقيام بالواجب بمحبة ووئام . (٦ : ١٦٧٥) وهو ما يقتضي من كل فرد تحويل نفسه (كمعرفة وغرائز ودوافع) إلى طاقة تعزز بها قوة الجماعة المؤمنة وتلك هي ما يدعى اليوم بالمواطنة الايجابية. (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله)[٧]

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة كذلك مميزة للذين مكنوا في الأرض واستخلفوا فيها، وهو المعنى الذي أفادته الآية الكريمة (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهو عن المنكر)[٨] (التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر)[٩]

ووردت لتفيد أن الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، هم من ضمن الفئات المؤمنين المبشرين، كما هو المعنى الذي أفادته الآية الكريمة (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين). [١]

ووردت من أبرز وصايا لقمان لابنه(يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر)[٢] .

فبهذه الآيات الواردة في سياقات متعددة وغيرها تكون وظيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الهوية المركزية الوظيفية للجماعة الإسلامية المؤمنة الوسطية، وهوية للشخصية المسلمة تتميز لها عن غيرها (من لم يهتم بأمر المسلمين فهو ليس منهم) .

التأسيس المعرفي لفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قيمة إنسانية أخلاقية عليا، حاضرة بشكل حتمي في كل وجود اجتماعي علائقي للجماعة الإنسانية، بل هي شرط وجود الجماعة، يتأسس حضورها الحتمي على فطرية ثنائية الخير والشر في حياة الإنسان، ويمكن اعتباره بمثابة الوجود بالفعل، المعبر عن الوجود بالقوة لثنائية الخير والشر، المنبثقة عن ثنائية المركب(النفسي/ البيولوجي) للإنسان، من حيث هي ثنائية فطرية أصلية لا تقبل الانشطار. فكما أن على الإنسان أن يواجه باستمرار . من

(٧) النحل . ١٢٠

(٨) الحج . ٤١

(٩) التوبة . ١١٢

(١) التوبة . الآية ١١٢

(٢) لقمان .الآية . ١٧

اجل بقاءه . مخاطر الطبيعية وعنفها المودع فيها كقوانين وسنن (الزلازل ، البراكين العواصف، البرد، الحرارة،) بما يراكمه من ثقافة وما تعلمه وجهز بأدوات من إنتاجه، فإنه أيضا عليه أن يواجه الآفات الاجتماعية (الرذائل الأخلاقية، الاعتداء والعدوانية، الظلم والتعسف، وكل ما ينتمي إلى الطبيعة الحيوانية المودعة في الطبيعة البشرية، التي تظهر كسلوكات ضارة بشكل حتمي . عند حضور شروطها . من شأنها أن تهدد وجوده ككائن ثقافي يتدرج في طبيعته الثقافية عبر تبادل رسائل الأمر والنهي إلى أفضل حالات الوجود الثقافي، من حيث هي إسلاميا (الاستخلاف في الأرض وتحقيق العبودية لله حق العبادة) . فممارسة النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، كتجلي من تجليات الإنسان الثقافي أو كوظيفة للثقافة ذاتها، لا تقتضيها وجوبا حالات اللاتوازن والاضطراب الممكنة الحضور والتواجد في أي لحظة من تاريخ الفرد أو الجماعة كعلاقات فحسب، بل اقتضتها أيضا ضرورة تسخير الإنسان كطاقة لغوية رمزية اتصالية وذكية، واستخراج كنوزه الفطرية المودعة فيه كطاقة في الجماعة المتآلفة، كما تقتضيه حاجته وحاجة المجتمع إلى الأمن، ذلك أن الأمن . كشرط للتمدن والحضارة . يمكن أن يتهدد من فرط الأنوية الزائدة، (تضخم الأنا)وضغوط نوازع الجسدنة (الانصياع لمطالب الجسد) وتراجع الأخلاق، كما هو باد على حياة اللبراليين (١٦ : ٩٠.) : حيث تراجع الأخلاق موضوع الأمر والنهي، وحيث سيادة التنافس الشديد الحر والصراع المؤذي للذات والآخر على حد سواء، وهو ما اقتضى وجوبا . تبعا لذلك . التجهيز الثقافي للجماعة وتأطيرها بآلية تربوية ترشيدية ذاتية (التحكم الذاتي) ترشد الناس إلى ما يجب فعله وما يجب تركه بلغة الأمر والنهي، (مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وهي صيغة حتمية في كل ما ليس فيه خيار معقول (كالخيار بين الخير والشر، وبين الألم واللذة، وبين الحق والباطل، وبين المفيد النافع والضار المهلك) فليس أمام الفرد أو الجماعة الثقافية من خيار عقلاني، إلا أن يمنع . من حياتها أو حياته . وجوبا كل ما هو شر وما هو أذى وضرر للإنسان في صيغة النهي والأمر، إن في الترك وإن في الفعل، حيث ينهي الفرد أو الجماعة عن ترك الخير وفعل الشر، ويأمر بترك الشر وبفعل الخير، وإشاعة أحدهما يقلص حتما من إشاعة الآخر.

ومن ثمة فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس إلا التجلي الطبيعي للإنسان الثقافي، من حيث هو الإنسان الذي يروض حاجاته الجسدية الطبيعية وفقا للقيم، بوصفها العقل الأخلاقي الجمعي المعياري المتفق عليه، حفاظا على منسوب إشاعة المعروف والخير، وهو ما يطلق عليه البعض (الهابيلية نسبة إلى هابيل) وكل ما يفيد الفرد والجماعة، من حيث هي حالة التوازن الموجب

للحياة والاستمرار في الوجود الوظيفي لكل من الفرد والجماعة، في نطاق زمامي ومكاني، وفي نفس الوقت منعا أو تقليصا وخفضا من منسوب أفعال الشر (القابيلية نسبة إلى قابيل) (١٩: ١٩) المؤذية للأفراد والجماعة وحصاره ومنعه من الوجود، من حيث هو حالة اللاتوزان الطبيعي يهدد وجود الفرد والجماعة، ومن ثمة فغيابه يعد غياب لممارسة أحد ركائز الوجود الاجتماعي المنظم ينذر الجماعة بالفوضى والعدمية. كما هو الشأن في محاولات القفز والتجاوز لصيغ الأمر والنهي كبيداغوجيا مجتمعية باعتبارهما علاقات عنفية لا تليق بالتمدن فكان حسب تعبير "كين " أن استبطن العنف الجسدي في وضع ما يسمى المدنية، لصالح أشكاله النفسانية الرهيبة . (١٦ : ١٣٨) .

فلا شك أن هذه المعاني للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتأسيس المعرفي يجعل منه كمؤسسة لا مبرر لها إلا وضع حد لما يسيئ لحرية الأفراد والجماعات وهو ما سنبينه في التالي :

غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظلم للحرية:

تنساق كثير من البحوث وراء المواصفات الوردية للمجتمعات المدنية الديمقراطية ومعاييرها في الحكم على نمط العلاقات والتسيير، حتى وصل الأمر بمن انبهر بها، ومنهم حتى من يعدون من الإسلاميين الحداثيين، إلى رمي النظام الإسلامي القائم على فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في جميع ولاياته الصغرى والكبرى، بأنه نظام شمولي نمطي لا يعير أي اهتمام لفردانية الفرد، مما يجعله عائقا أمام تحقيق الحد الأدنى من الحريات بل ينتهكها . وتعرضت فضيلة " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " لعنف لغوي وفكري/ حيث لا يتحرجون من نعتها ووصفها بـ " الإرهاب المنظم أو الرسمي" أو يزعمون على أنه من علامات الأنظمة العسكرية، ويدعون للتخلص منه جملة وتفصيلا، بوصفه مجموعة أنساق قانونية صارمة، وتنظيمية قاسية، تحاصر حرية الفرد وتقمعها وتعطل إبداعاته، بل هم يناضلون عبر ما يسمى بالمجتمع المدني والأحزاب والجمعيات الثقافية وحقوق الإنسان والأندية العلمية والمنظومات التربوية، في القضاء عليه وإرساء بديلا عنه يكون لصالح الحرية الفردية، مستندين في ذلك على منهج المقايسة للتجربة الغربية التاريخية وما عرف بمحاكم التفتيش في العصر الوسيط. ويؤسسون رأيهم هذا على ما يسمونه المعطيات العلمية، في علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ وعلوم المعرفة، وهي معطيات تفيد ـ عندهم ـ أن تدخل المجتمع بأنساقه الأخلاقية والدينية والفكرية في تنميط الشخصية، هو إفساد للطبيعة البشرية

وتدخل في فطرة الله، ينتج عنه كبت وتكبيل للطاقة الحيوية، وإذا عدنا إلى أدبيات الفلسفة نجد هذه المسلمات والمصادرات العلمية لا تصمد أمام حقائق الطبيعة الإنسانية، حيث نجد معظم كبار الفلاسفة الضالعين في تأويل الإنسان يجزمون، بأن الإنسان لا يصير إنسانا . بحسب معطيات التجربة التاريخية . إلا بالتربية. وأنه لا يستطيع أن يعيش إنسانيته ولا يستطيع أن ينتقل من الحالة البيولوجية إلى الحالة الثقافية والنفسية إلا بالتربية، (١٧ : ٩٥) وانطلاقا من ذلك فإن النصيحة من حيث هي ليست إلا جزء من التربية والتنشئة الاجتماعية وتثقف اجتماعي، فهي من ضمن شروط إنسانية الإنسان ما دامت الثقافة والتربية هي شرط إنسانية الإنسان، وبالتالي فأن فكرة " الاكتفاء الذاتي" وهم وخيال وطوباوية، لا يمكن قبولها والتسليم بإمكانيته، فصرخة الميلاد إن هي . فيزيولوجيا . تعبيرا طبيعي عن الإحساس بالتغير، فهي في المقاربات النفسية والاجتماعية، تعبيرا مزدوج المعنى، فهي إعلان عن الاستقلالية وتصريح بالانفصال وميلاد للأنا، كما أنها أيضا إعلان عن العجز الذاتي والضعف الطبيعي الموجب للحاجة للآخر (الأم) واستدعائه، وإيذان بضرورة الاتصال والمعرفة، حيث أن المعرفة لا تحصل إلا بالانفصال، من حيث هو الشرط الأول للاتصال . ومن ثمة فلا مناص ولا مفر عند العلماء والفلاسفة أمثال " مارغريب ميد" من التدخل الثقافي، يساعد الإنسان على تحويل الطبيعة الحيوانية إلى الطبيعة الثقافية (١٧ :٦ . ١٤) من حيث هي طبيعة أخلاقية، وتحويل الفطرة إلى الفضيلة كما يعبر عنها . وهي مقولات ومصادرات ومسلمات لم تستطع المعطيات العلمية تفنيدها أو تجاوزها بكل المناهج الأمبيريقية أو التاريخية أو المنطقية والفلسفية، فما كان من المعطيات الموصوفة بالعلمية التجريبية إلا إعادة النظر في طرح المشكلة، بأن انتشلتها من الشرط الثقافي للإنسان إلى الشرط البيداغوجي، فتحولت بذلك إلى مشكلة بيداغوجية لاسيما عندما فشلت كل التجارب في إنتاج الإنسان الطبيعي المنزوع القيم .

ومن ثمة فمقولات الدين الإسلامي بشأن فطرية (الإنسان الثقافي) مقولة يصعب تجاوزها، ففطرية تعلم الإنسان للأسماء منذ الأزل (وعلم آدم الأسماء كلها)[1] وإغواء الشيطان (فأزلهما الشيطان) والحديث الشريف القائل بأن الإنسان يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصراه ...) إشارات بالغة لصعوبة إن لم نقل استحالة الفصل بين ما هو حيوي بيولوجي في الإنسان عن ما هو نفسي فيه، وهو ما يؤسس لضرورة أو حتمية الثقافة، ومن ثمة التأسيس لحتمية

(١) البقرة . الآية . ٣١

النصح والإرشاد كجزء من أمانة الاستخلاف في الأرض ما دام الإنسان على قابلية لاكتساب الخير والشر معا. ومن ثم فلا عجب أن تكون النصيحة هي الدين بموجب الحديث الشريف المشار إليه أعلاه (الدين النصيحة)، فشعار امة الإسلام وعلاقاتها الاجتماعية وتواصلها إنما هو شعار النصيحة والتوصية بالخير، ويكاد هذا الشعار أن يكون الصفة المختزلة لأخلاق الأمة الإسلامية . (أمة التناصح والعمل والتواصي بالحق والخير والصبر) والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فالإنسان في الخسران حين يكون بعيدا عن حيز النصح والتواصي بالحق والصبر.

وتأسيسا عليه فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة شرعية إسلامية حياتية للأمة (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف والنهي عن للمنكر) تتم عبر جدل الجانب الحياتي من الفريضة (الأيروسي بلغة علم النفس) (١٨ :٧٥) والذي ندعوه (الأمر بالمعروف) وجانبها العدمي بلغة علم النفس) (١٨ : ١٧٩) يحارب الآفات الاجتماعية وندعوه (النهي عن المنكر) لتتشكل الحياة المعيارية الإسلامية الآمنة (وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)[٢] فممارسة "الأمر بالمعروف" هو في نفس الوقت إحياء وإنماء للفضيلة (المعروف) وعدمي وحصار للرذيلة (المنكر)، والنهي عن المنكر هو في نفس الوقت منع للرذيلة (المنكر) من حيث هي آفات اجتماعية، نابعة عن الهوى والشهوانية النفسية المنزوعة الروح، أو نتيجة إلحاق النفسي بالجسدي ،أو هو تجليات لاستيلاء وسيطرة الجسد على النفس والعقل (النفس الأمارة بالسوء) وهو ما يناقض الحرية بمفهومها النفسي والاجتماعي، إذ أن غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفسح المجال واسعا أمام صعود اللامعيارية التي ستحل محل الحرية وهي التي ستجعل المجتمع يطلق ما يمكن أن نسميه الآهات الأخلاقية من حيث حي أذى للنفس والمجتمع والدين ويمكن اعتبار حروب الردة إن هي إلا وجه من أوجه النهي عن المنكر تجلى في استكمال مكارم الأخلاق وانبعاث الأمر واستمرارها كأمة تقوم بدور النهي عن المنكر من حيث هي نهي عن ترك الدين ومقتضياته في الحياة .

وكل الأفعال الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر وما سن بشأنها من تشريعات وقوانين وما استحدث من أجلها مؤسسات ومدارس، هي أفعال تندرج كلها في إطار الأمن الأخلاقي

---

(٢) قريش . الآية . ٤

كمطلب اجتماعي لا تستقيم الحياة إلا به كما تندرج ضمن شرط استمرارية الدين في حياة الناس. ذلك أن الحياة الإسلامية تؤسس الأخلاق كمنطق للعمل ، مثل ما يتأسس المنطق كأخلاق التفكير. وبهذا المعنى يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس إلا مأسسة للأخلاق، أو هو وجه آخر من مأسسة الأخلاق إن في الفرد وإن في المجتمع، بمعنى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتأسس في الدولة الإسلامية كما لو أنه منظومة منطق العمل في المؤسسة، حيث يتموقع . كفعل مؤسسي اجتماعي . كما لو أنه نسق من معايير ضابطة وحامية للمؤسسات . في صيغة الأمر والنهي . من كل زيغ أو انحراف، ويعمل على بعث الحياة الآمنة باستمرار في كل أركان المؤسسة (سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية إنتاجية أم خدماتية ..الخ

وإذا عدنا إلي معاني **النصيحة** من حيث هي ممارسة لأحدى أبرز مكونات **الأمر بالمعروف** وهو ما يفيد التقاطع العملي والوظيفي بين النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورصد لنوع العلاقة بينهما من حيث هي علاقة الكل بالجزء وأنهما شرطان لضمان حرية الإبداع (الفردي أو الاجتماعي)

محاولة لإدراك الوحدة العضوية بين متغيرات البحث

يسمح لنا التحليل السابق ويشرعن لنا أن نبني معرفة تؤكد، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذا أفعال النصح والإرشاد والتواصي بالخير، تتأسس كلها كوظائف ثقافية تنبثق عن وحدة الأصل البيولوجي والنفسي للإنسان، وتتأسس في المجتمع الإسلامي كبرامج ومشاريع مؤسسية كضرورة حياتية، تفرضها ضرورة مضاعفة الجهد كما ضاعفت المدرسة جهود الأسرة في الوظيفة التربوية، وهي في ضل هذه المشروعية والأصالة، تصبح من القوى الناعمة المجتمعية وتترسخ في البنى النفسية الاجتماعية كطاقة خيرية، وتنموا وتزدهر بما يمكن أن نسميه "بيداغوجية الحسنى" مضادة لكل ما هو عدمي وعنفي ومؤذي . وهو ما يجعلها أكثر ارتباطا بالحرية، من حيث هي غاية الدين كله بوصفه ما شرعه الله إلا لتحرير الإنسان من كل عبودية . في صفاء ووضوح من غير شبهات البدع وخلط بالشرك . ما عدا عبودية الله تبارك وتعالى

وإذا تفحصنا معاني ودلالات الحرية لاسيما اللغوية منها كما أوردناها أعلاه (الإبانة، والصفا، والوضوح وعدم الغموض أو الاختلاط بالشيء) نجدها متطابقة مع معاني النصيحة كما تحيل عليها معاني الحديث الشريف السالف الذكر (الدين النصيحة ...) وهو ما يعني أن النصح والإرشاد

فعل أخلاقي لا ينفصل عن شرط ازدهار الحرية من حيث هي ـ ابتداء ـ تحرير النفس ـ على المستوى الفردي ـ من كل هيمنة وسيطرة وتبعية جسدية دنيئة، أو من سيطرة الهوى بوصفه غريزي بهيمي عدمي، لا يمكن أن يتساوق مع مفهوم الحرية الذي لا يكون إلا إحيائي حياتي.

والمقاربات الاجتماعية الناضجة للحرية ـ بوصفها قيمة عليا من قيم الإنسان ـ تبرزها مقرونة بكل ما فيه خيار، أو بكل الوضعيات التي يكون فيه الخيار متاحا، فالمرء يكون حرا إذا توفرت له وضعيات (التعدد والتنوع) تجعله أمام خيارات متاحة، وعليه يفترض في ساسة المجتمع الإسلامي وما يساس به أن يجعل الحياة الإسلامية التربوية والسياسية والاجتماعية والثقافية زاخرة بالتنوع والتعدد، تجسيدا وتحقيقا لشرط حرية الاختيار وإتاحته على قدم المساواة للناس كافة، ومن ثمة فالأوامر والنواهي من حيث هي صيغة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي أوامر من المفترض فيها أن تكون لمنع كل ما من شأنه أن يحد من خيارات المسلم، من حيث أن ذلك يحد من حريته ويؤذيها، فالمنكرات والسيئات والموبقات الموجبة لقوانين النهي هي في حقيقتها مناقضات لحرية الاختيار يجب منعها حتما، وهو ما يجعل النهي عن المنكر والأمر بالمعروف محصورا في كل ما ليس فيه خيار (كالخيار بين الخير والشر، والحق والباطل...) فالأمر والنهي يقترنان بكل ما يتعذر فيه الخيار، وأن كل ما يتعذر فيه الخيار هو موجب للأمر والنهي حفظا للحرية ذاتها المهددة بمنع ما يحميها ولا يجوز من السلوك الفردي أو الاجتماعي فيصبح في نطاق الحتمية، بل إن الحتمية هنا هي ضرورة لحماية الحرية من حيث أن الحرية لا تتهدد إلا في تضييق الخيارات.

وإذا كانت النصيحة في جوهرها لا تتعدى وظيفيا حدود اللسان، والقول اللين (التغيير باللسان) فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كما بينا معانيهما ـ هما طرفا النصيحة بعينها ـ ولكنها نصيحة ممأسسة، فرض مأسستها كما أسلفنا ضرورات مضاعفة الجهد الفردي والأسري في التنشئة كما ضاعف الإنسان جهده اليدوي بالآلة، تحتاج إلى تشريع وفرق عمل ولجان وجمعيات خيرية حتى لا تتحول النصيحة إلى مجرد ظاهرة **صوتية**، ذلك أنه قد يحدث أن لا يف النصح بالقول بتغيير المنكر، فيحتاج إلى التغيير باليد، (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) . ومظاهر المنكر كالاعتداء الجنسي وأكل أموال اليتيم والظلم الاجتماعي والفساد وسفك الدماء والسطو على الممتلكات وقتل الأنفس بغير الحق وسلب الإرادات وانتهاك حرمات الله، والبغي واختراق الآداب العامة ومعظم الانحرافات، كلها منكرات قد لا يكف مرتكبيها عن فعلها إلا بالقوة والسلطة (

التغيير باليد) كما أن فعل الخيرات والإحسان، وحسن العبادة، والتكافل والتراحم والتعاون والاستقامة والعدل...كلها مواضيع من "**المعروف**" قد لا ينتبه إليها الأفراد أو يتكاسلوا عنها، فتجب وضعها كمشاريع مجتمعية ملزمة تساهم في إيجاد مناخ ثقافي للحرية من حيث هي تنافس واستباق نحو كل ما يسعد الإنسان ويقي المجتمع.

ولعل ذلك الإلزام ومشروعية التغيير باليد . من حيث هو تغيير للمنكر والآفات . هو من ضمن ما شرعن العمل بالممانعة والمغالبة الشرعية، كما شرع لحروب الردة، فعلة مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كانت . بداية . لصون الحريات العامة والخاصة.وحفظ الدين، والارتباط بينما ارتباط شرط الموجود ، فما وجد المنكر إلا لقياس مراتب الخير ومعرفته عظمته وأهميته، ولولى وجود المنكر لما كانت الحاجة إلى الأمر بالمعروف، لأن الحياة كلها في غياب المنكر هي معروف بالضرورة .

وخلاصة القول أن الخيط الرابط بين الحرية، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- جعلها كأفعال مؤسسة على الخير . في وحدة عضوية، فالحرية هي إطلاق التنافس على الخيرية وإشاعة ظروف الاختيار، وهي من ألأخلاقيات المركزية لممارسات الدولة تجاه الأفراد والجماعات، من حيث أن الدولة هي المعنية الأولى لحفظ الحريات الجماعية والفردية، وصونها من كل ما من شأنه أن ينقضها، بالنهي عن المنكر المؤذي للحرية الخيرية، وأما النصيحة، هي من أخلاقيات الفرد المسلم، يمارسها كجزء من حياته، وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أصله، هو ممارسة لأخلاقيات جماعة المؤمنين لحفظ حرياتهم من صور العبودية لغير الله، وعقولهم من صور الضلال والزيغ والهوى . وبهذا نكون قد كشفنا الوحدة العضوية الأصلية التي عليها متغيرات هذه الورقة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. النصيحة. الحرية) واكتشفنا علاقاتها التشاركية الوظيفية في النفس والمجتمع .

المفاهيم الثلاثة درع واقي من الانحرافات الفكرية والاجتماعية

ولعل أبرز ما نقف عليه من هذه المعاني للمفاهيم الثلاثة (النصيحة ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحرية)وفي ضوء صورتها التكاملية ووحدتها العضوية، هو أن هذه المفاهيم من الناحية التنظيرية يمكن أن تؤسس لإنتاج وتشكيل مذهب اجتماعي متميز حر للأمة الإسلامية(كالمذهب الاقتصادي والسياسي ...) مما يغني عن استعارة النظريات والأفكار والمذاهب الأخرى المتعلقة

بتنظيم المجتمع وفق مقتضيات الحرية ومتطلبات المجتمع من الاستقرار والنمو . إلا من حيث الاستفادة، فتساس به الأمة وتنتظم في ضوئها السياسات الاجتماعية والتربوية، وتمكنها بالتالي من النهضة الاجتماعية، حيث لا نهضة من منظور مالك بن نبي وغيره إلا بتنظيم أفكار الأمة وتفعيلها، فإذا ما تمكنت أمة إسلامية من تحويل هذه المفاهيم إلى مفاهيم كلية نسقية تشكل تصوراتها التي تتفرع عنها أحكامها على الأشياء (الحكم عن الشيء فرع عن تصوره) تمكنت من أسباب صيانة شبكة العلاقات الاجتماعية التي هي ظل العلاقة الروحية الدينية اللازمة لأي حركة اجتماعية إيجابية، من أخطار التمزق والتفكك الذي يمكن أن يحدث حين الميل والتحيز إلى عالم الأشياء، إذ أن المفاهيم الكلية (الحرية والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) هي بمنزلة الثروة الفكرية التي لا غنى عنها اليوم في العبور إلى المجتمع المعرفي في صورته الحديثة التواصلية، من حيث هو مجتمع التناصح والجماعة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، ولا غنى عنها في تنظيم المجتمع وحركيته وتطويره، ولا غنى عنها في انتشار الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع فالحب الاجتماعي ينموا حيثما يوجد التناصح والحرية المسئولة لا تكون إلا في ضل مناخ اجتماعي تسوده ثقافة التقويم الاجتماعي المؤسسي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وقد حظيت بهذه الأسس والمعاني السامية المجتمعات الإسلامية دون غيرها، فهي بمنزلة المؤسسات الفكرية التي تعصم الأمة من حالات اللا أمن الفكري، بما تؤديه من وظائف اجتماعية وثقافية وتربوية تسدد العقل وتمكن من حصار الممارسات غير المسؤولة من الظهور باسم الحرية، وترفع من منسوب التكيف الاجتماعي للفرد إلى أعلى مستوياته ليصبح ذلك الفرد المشروط من حيث هو الشخص الفعال المتمثل لشروط ومقتضيات البنيان المرصوص، لقول الرسول الكريم في حديث رواه مسلم (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ...) . كما تمكن من منع الإكراه في الدين والسيطرة، وتمكن كذلك من التخلص من كل الأفكار المنحرفة بطرق تربوية فعالة، عبر ما يسمى بالتربية الاجتماعية من حيث هي مفتاح تغيير ما بالنفس كشرط لتغيير المجتمع، وتصون وعي المسلم من كل شبهة تثيرها الأفكار المنحرفة المعاصرة، بما تتمتع به من رصانة العقل الجماعي وما يمكن أن نسميه "الرصن الوجداني" الذي تتميز به حياة المسلم (حب لغيرك كما تحبه لنفسك).

ومن ثمة فالمفاهيم تلك هي بمنزلة الجهاز المفاهيمي الذي يجعل المجتمع الاسلامي في عمق الفعالية أفرادا وجماعات متشابكة في علاقاتها الاجتماعية والاتصالية لا يجد الذئب قاصية يأكل

منها، كما يجعل من تحقيق أبلغ صورة لقاعدة "بعضنا من بعض" حالة ممكنة وواقعية. وهي أبلغ صورة في عالم الفكر التواصلي أو المجتمع التواصلي المعرفي .

ومن ثمة فلا نرى قيمة لهذه المفاهيم في صورتها العضوية، إلا وهي نعم دينية تعمل كالقلب النابض في حياة الأمة، لا يجوز التفريط فيها، مما جعلها مفاهيم حية تحضر لزوما .كقيم ثابتة . حيثما كان المرء في ممارسة سلوكية اجتماعية قصدية، فلا تقتصر على عصر أو مصر أو موقف دون آخر ، فهي حاجة إنسانية خيرية ترتبط بالوجود الاجتماعي للفرد باعتبارها مؤسسات لا يمكن الاستغناء عنها في تحقيق التضامن والتماسك الاجتماعي والاستقرار والامن النفسي والاجتماعي، وتلك هي أساسيات لكل تنمية اجتماعية في عصرنا الحاضر، تجعل المجتمع في انسجام فكري وتناغم سلوكي وتجميع طاقوي روحي ثقافي يحرك الامة نحو التنمية المستمرة، إذ لا تنمية اجتماعية بدون استقرار أو تضامن وتماسك واستقرار . وقبل ذلك فلا تنمية الا بتشكل العقل الاسلامي كما لو انه عقل تثاقفي تعاوني، مما يجعل كل فرد هو بالضرورة أمة (العقل الجماعي) محمل بكل قيمها، بل محمل بكل سمات الأمة الثقافية والتفكيرية. حيث تصبح سلوكاته وأفكاره الأخلاقية، كما لو أنها أفعال وانعكاسات شرطية في صيانة المجتمع، وتحمل مسؤولية منع المخالفات الفكرية والاجتماعية، كالاجتهادات الخاطئة في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني، ومنع تسرب الإعجاب بالرأي (الأنوية الزائدة) والتعصب والحمية الجاهلية والانعزالية والانغلاق والانكفاء على الذات أو التقليد الأعمى والانسلاخ والتفسخ. وصيانة المجتمع بالممارسة الواعية لهذه الآليات المفاهيمية كثقافة مجتمعية من شأنه أن يمنع أو يقلل من احتمالات حدوث التناقضات الفكرية التي يمكن أن تظهر في المجتمع الإسلامي بفعل التطور خارج نطاق المعيارية الدينية الإسلامية، والتعاطي أو التماهي غير الواعي مع الأفكار المستوردة الضارة كالمخالفات الفكرية التي تظهر من حين لآخر في مجتمعاتنا الاسلامية والتي تصل أحيانا إلى حد تحريم الحلال وتحليل الحرام . لا سيما تلك المجتمعات التي فرطت في شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كمؤسسة تعمل على منع ظهور الشطط الفكري والتعصب المذهبي باسم الحرية، أو تلك التي فرطت في حرية الانسان وكرامته واشراكه في المواطنة في الاوضاع الديكتاتورية التي لا تعمل بالشورى الشرعية.

التأسيس البيداغوجي لتكامل الحرية والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

غير أن ذلك الوجه الحسن التكاملي الذي كشفناه في ممارسة أفعال (النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحرية) والحفاظ على وحدتهم العضوية في المعنى والممارسة، يتوقف إلى حد كبير على النمط البيداغوجي المعتمد في تربية الحرية، والأساليب التربوية المعتمد في التنشئة المجتمعية على فضيلة التناصح، من حيث هو تثاقف، بيني تفاعلي بين افراد المجتمع في ضوء مفهوم الاحسان إلى الآخر وفقه ممارسة قيم التعاون بعيدا عن الإكراه والضغط، فالمسلم الرباني لا يكون كذلك متحملا لمسؤولية هداية الناس إلا عندما يفقه قوله تعالى " ليس عليك هداهم و لكن الله يهدي من يشاء...)[١] وقوله (لا إكراه في الدين ...)[٢] وقوله (لكم دينكم ولي ديني ..))[٣] الخ . فكل هذه الآيات الكريمات وغيرها تضع الدعوة والنصح والإرشاد والهداية في نطاق بيداغوجيا القول الحسن والتبليغ من غير إكراه، (اذهبا إلى فرعون وقولا له قولا لينا)[٤] تبرئة للذمة وممارسة للواجب .

وما يقال عن ممارسة فضيلة النصح والإرشاد ويصدق ـ بوصفها ممارسة أخلاقة فردية ـ يقال ويصدق كذلك عن فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بوصفها مؤسسة، فإذا ما كانت لجان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو قوانينه وتشريعاته ـ كمؤسسة من المؤسسات الخيرية المجتمعية تحفظ الأمن الأخلاقي لكل أفراد المجتمع الإسلامي فإنها ستكون ملزمة في قوانينها وممارساتها، أخلاقية بالدرجة الأولى تحفظ كرامة الإنسان ابتداء وتصون أخطاءه وترشد أعماله الفردية والمؤسسية في نطاق الدعوة وفقه الحكمة والموعظة والجدال بالتي هي احسن، بعيدا عن ثقافة أنا خير منه. ذلك أن النصيحة من حيث هي حق طبيعي يجري بين الكل المجتمعي، إن هي إلا استجابة لطلب المنصوح له، أو هي ردة فعل أخلاقية تصدر من الناصح ناتج، عن انحراف شاهده وعاينه من موقعه الاجتماعي وتأكد منه أو أدركه أو سمعه أو قرأه، وفي كل الحالات هي إجابة عن سؤال أو مشكل في الذات (مشكل ذاتي) أو في الآخر، شكل قلق أخلاقي يدفع ـ كوازع اجتماعي ـ الناصح حين يشعر بالمسؤولية ويكون على علم بالموضوع كحق . ومن ثمة

---

(١) البقرة .٢٧٢

(٢) البقرة . ٢٥٦

(٣) الكافرون. ٦

(٤) طه . ٤٤

فالنصيحة لا تكون إلا وهي استجابة حرة لمثير (انحراف في الذات أو في الآخر أو سؤال (طلب النصيحة) وهي بذلك مصدر تمويل معرفي ناعم متبادل بين أفراد المجتمع كما لو أنها أخلاقياته، الموجبة للارتقاء بالسلوك نحو ألأفضل،

ولعل تأسيس الدعوة الإسلامية على "النصح" هو في حد ذاته تأسيس لما يمكن أن نسميه بـ "بيداغوجيا الإحسان " من حيث هي بيداغوجيا تقوم على القول الحسن والارتقائية بالسلوك نحو الأفضل، وترفض أسس التنميط أو التمثل أو التشكل والتقليد، حيث تعتمد العفوية والتلقائية، وتحمل المسؤولية وتفعيل الإرادة، على الأقل في تربية الصغار، فكما يتعلم الصغار قواعد ألعابهم والالتزام الجماعي الأخلاقي بها أثناء اللعب، فكذلك يمكنهم أن يتعلموا قواعد الأخلاق عبر بيداغوجيات الكوميديا والدراما والقصص عوض إلزامهم بالحفظ وتنميط السلوك، فمن شأن هذه الأساليب أن تبني السلوك الأخلاقي بعيدا عن الفرض ولعل بيداغوجيا تعديل السلوك، من اللاسوي إلى السوي عبر تقنية الحوار والمثير والاستجابة، بتطبيق ما جادت به المدرسة السلوكية، وكذلك ما جادت به المدرسة المعرفية في بناء السلوك أو الموقف التعليمي، ومددها المعرفي في البيداغوجيا تقوم على الوضعيات والمعتقدات والأفكار والمواقف والخبرات وتصحيح المفاهيم والتصورات والادراكات والوعي بالذات كلها تفيد كخبرة علمية بيداغوجيا في وضع النصيحة موضع الدراسة العلمية في سياقها البيداغوجي التربوي على مستوى نصح الصغار أو الكبار (أفراد أو مجتمعات وجماعات) وبوضع النصيحة في سياق بيداغوجيا الإحسان نكون قد انتشلناها ابتداء من بيداغوجيا التقليد من حيث هي بيداغوجيا التأثير الأيديولوجي، وربطناها بآليات تعلم الأخلاق في نطاق مقتضيات الحرية، حيث تكتشف ولا تملى وتطاع عن غير وعي، فالنصيحة الرشيدة الناضجة ليست كما يعتقد تلك المؤثرة ذات الوقع الانفعالي في النفس، بل هي المنقذة من حالة الاستجابة الانفعالية والرفض الانفعالي الباعثة للنفس اللوامة من حيث هي بعث لحالة النقد الذاتي الذي قد يقود ليس إلى تصحيح الاستجابة الخاطئة فحسب، بل إلى تعديل مضمون النصيحة وإعادة إنتاجها في صيغة أكثر توافقية .والنصيحة غير المباشرة كالنقد غير المباشر تكون ذات اثر بالغ في النفس لاسيما عندما تكون في شكل كوميدي وعبر فن القصة والدراما والحوار الشبكي. وهو ما يجعل من ظاهرة النصيحة، معرفة مكتسبة للناصح والمنصوح له بوصفها كقوة أخلاقية ترتقي بالفرد، إلى الوعي الذاتي بالآخر وإدراجه في ذاته، (المؤمن مرآة أخيه المؤمن) بحيث يصير مكتفيا بذاته ومستغنيا عن مساعدة الآخرين في تمثل حقوق الآخر، أو يصبح مؤهلا ذاتيا

لتعلم وإدراك التمييز بين ما هو خير وما هو شر، أو ما هو صحيح وما هو خاطئ، أي هي اكتساب جماعي للذكاء الاجتماعي من حيث هو أحد الشروط الضرورية لممارسة الحرية في نطاق اجتماعي ، وبهذا المعنى تكون النصيحة فعل تقويمي تصحيحي للسلوك أكثر مما هو إدماجي أو حتى تبليغي، ولعل هذا هو المعنى الذي أفادنا به أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته المشهورة كنصيحة متواترة صالحة عبر الزمن (أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، ....وإن أخطأت فقوموني...)

وبهذا التأسيس البيداغوجي تكون النصيحة شرط للوعي بالحرية ومقتضياتها من المسؤولية، وفعل يجري عبر الجدل المعرفي التلقائي العفوي (التناصح) يجري كتنشئة اجتماعية ، أو كتنظيم مؤسسي وتشريع وقوانين لا تضبط النفس في قوالب سلوكية نمطية، بل بقيادتها نحو الاكتشاف الذاتي للحق المبين حتى تتمثله النفس كقيمة عليا مرغوب فيها . وذلك هو المفهوم الجدلي بين فعل النصح والحرية يضعهما في موضع الحق المضمون من الكل، للكل المجتمعي

والتناصح من حيث هو تعاون وتبادل في إنتاج القواعد الأخلاقية الملزمة هو البديل عن الفرض والقسر التربوي للقواعد كما هو في الدوركايمية والكهنوتية الكنسية . والتناصح يتضمن في بعض معانيه التبادل والتعاون المتضمنان للنقد والنقض المستمر . وكل من النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستهدفان مأسسة الأخلاق في الفرد، تقتضيه وعي الفرد بحقه في الخروج من قفص أهوائه وإطلاق حريته نحو معرفة الأكوان (النفس، والمجتمع، والطبيعة) فالنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سياق الحياة الإسلامية الموجبة للحرية، هي الكلمة الطيبة والصدقة الجارية كالشجرة الطيبة الثابتة المستقرة التي تأتي أكلها في الحرية والإرادة والأمن كل حين بإذن ربها، في حين أن الكلمة الخبيثة هي المنكر العدمي للحرية والإرادة ليس لها من قرار .

والله أعلم

قائمة المراجع

القرآن الكريم

الأحاديث النبوية الشريفة

المراجع والمصادر العامة

١ . المنجد في اللغة والإعلام .ط/٢٦ . دار المشرق . بيروت .لبنان .

٢ . محمد بن عيسى بن سورة . سنن الترمذي . ت. محمد احمد شاكر وآخرون . ط٢/ ١٣٩٥ . شركة مكتبة ومطلعة مصطفى البابي الحلبي . مصر .

٣ . محمد بن اسماعيل البخاري . صحيح البخاري . ت . محمد زهير بن ناصر الناصر . ط١ ١٤٢٢ هـ . دار طوق النجاة .

٤ـ احمد الشرباصي . موسوعة أخلاق القران . ج٤ . ط١/١٩٨١ . دار الرائد العربي . بيروت لبنان

٥ ..محمد بن إسماعيل البخاري . الأدب المفرد . . مكتبة المعارف للنشر والتوزيع . الرياض ط١ ١٤١٩ هـ

٦ . سيد قطب . في ظلال القرآن . م. الثالث . ط٩ /١٩٨٠ . دار الشروق . بيروت . لبنان .

٧ . مالك بن نبي . ميلاد المجتمع . (شبكة العلاقات الاجتماعية) . ت. عبد الصبور شاهين .ط٢ . دار الفكر . طرابلس . لبنان .

٨ . أحمد بن الحسين بن علي البيهقي . السنن الكبرى . ت . محمد عبد القادر عطا . ط٣/١٤٢٤ هـ دار الكتب العلمية بيروت .

٩ . مسلم بن الحجاج النسابوري . صحيح مسلم . ت محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

١٠ . محمد بن عيسى بن سورة . سنن الترمذي . ت. أحمد محمد شاكر وآخرون .ط٢ ١٣٩٥ . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي . مصر .

١١ . أكرم بن ضياء العمري عصر الخلافة الراشدة . مكتبة لعبيكان . المملكة العربية السعودية . د.ت

١٢ . علي بن هادية وآخرون . القاموس الجديد للطلاب . ط٧/ ١٩٩١ . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر .

١٣ . عدنان عبد الرحيم . فريد والطبيعة الإنسانية . ط١/ ١٩٨١ . دار الحقائق .

١٤. بن تيمية . الحسبة ومسؤولية الحكومات الإسلامية . ط/١٩٩١ . الطريق للنشر والتوزيع . الجزائر .

١٥ . معمر بن أبي عمر راشد .نزيل اليمن . ت حبيب الرحمن الاعظمي .ط١٤٠٣/٢ . المجلس العلمي بباكستان . المكتب الاسلامي بيروت .

١٦ . جان كين . تأملات في العنف . منبر الحوار . (العنف والذاكرة والتاريخ) .ع.١٩٩٨/٣٥ . الفلاح للنشر والتوزيع . بيروت لبنان .

١٧ . مارجريت ميد . النمو والتربية في المجتمعات البدائية . ت. نعيمة محمد عيد . المطبعة العلمية . القاهرة ..

الرياض .

١٨ . عبد المنعم الحفني . المعجم الموسوعي للتحليل النفسي .ط .١٩٩٥ . مكتبة مدبولي . القاهرة .

١٩ . جيري لانغ . نهج قابيل وهابيل في العمل داخل المؤسسات والمكاتب . ت. أيمن الأرمنازي .ط/٢ . لعبيكان .

فهرس المحتويات